محمد نجيب عبدالله
شيروفوبيا
رواية
الرواق للنشر والتوزيع

شيروفوبيا
Cherophobia

شيروفوبيا - Cherophobia
محمد نجيب عبدالله
■ **الطبعة الأولى**..... أكتوبر 2013

الغلاف: أحمد مراد
التصحيح اللغوي: ياسر ياسين
رقم الإيداع: 19691 / 2013
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 5153 – 38 – 8
جميع حقوق الطبع محفوظة

3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

شيروفوبيا
Cherophobia

روايــة

محمد نجيب عبدالله

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء...

إلى كل شخص تقع عيناه على هذه الصفحة وروايتي بين يديه لأنه يستحق أن تُهدى له..
إلى قليل مما تبقى لي من أسباب سعادة في هذه الدنيا..
إلى الذين أحبهم..

محمد نجيب عبدالله

تقديم

أحياناً يكون الفرح نعمة ولكنه غالباً ما يكون فتحاً عظيماً. فلحظتنا السحرية تساعدنا على التغير بل وترسلنا للبحث عن أحلامنا. نعم، نعاني كثيراً، تقابلنا المصاعب، وستصدمنا الكثير من الإحباطات. ولكن ذلك كله مؤقت ولن يترك علامة دائمة. ويوماً ما سننظر خلفنا بفخر وإيمان بالرحلة التي قمنا بها.....

باولو كويلهو
على ضفاف نهر بيدرا جلست وبكيت

(١)

للأشياء مقدمات تؤدي إلى الخواتيم

هكذا آمن (مراد) طوال عمره.. لذا فقد خفّت حدّة الاندهاش لديه وحلّ محلّها الاحساس الشديد بالهزيمة والألم.. أدرك أن كونه ابن سفير راحل.. وأنه جاب مع والده الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. لم يكونا سبباً كافياً ليربط مصيره ويضع مستقبله بين يدي امرأة العالم الآخر.. ولربما كانت والدته ـ خريجة السوربون والمتقنة للغات خمس ـ خبيرة كفاية حين أبدت اعتراضها الذي وصل حد الرفض الصريح من أن يقترن ابنها الوحيد بتلك الشقراء الفاتنة (ليندا).. لولا أنه أصر على فعلته ففعل!!

أن تتقبّل الآخر أمر يختلف برمتّه عن أن تقبله.. فالتقبّل يحمل صفة الافتعال.. ومن السهل جداً أن يدرك المرء أن ثمّة فارقاً شاسعاً بين الافتعال والفعل.. لذا فأن يحب (مراد) تلك اللذيذة (ليندا) فذلك أمر عادي جداً.. يندرج تحت بند التقبّل.. فأنت تتقبل أنها تدخن.. وتتقبّل أنها تستبدل البيرة بالماء.. تتقبّل أكتافها العارية وأفخاذها اللامعة وحركات جسدها المتأودة المثيرة.. فكل هذا يختفي تماماً عندما تنطق (ليندا) بثقافتها الواسعة وخفة دمها

الواضحة وتلك الحياة التي تنبض من كل حرف وكل نَفَس يندّان عنها.. لقد كانت تضفي على حياته ألواناً هي أطياف من قوس قزح لا يتوارى.. وقد صدّق أن ثمة قِدراً مملوءة بالعملات الذهبية في أحد طرفي هذا القوس.. كان مفتوناً بها.. والحق أن (ليندا) كانت لتفتن أعتى الرجال..

لم يدرك (مراد) حينئذ أن هذا ملح أجاج وهذا عذب فرات.. لا يختلطان.

لا ينكر أن علاقته بـ(ليندا) قد ساعدته في أن يرى الجهة الأخرى للأشياء.. وأن لحظات مرح عديدة كادت توهمه أن ثمة سعادة قابلة للتحقق في حياته.. ولأن هذا كان جُلّ ما يؤمله فقد خاض تجربته بكل انبهار وشغف.. فكان كل يوم جديد يمر عليهما بمثابة حياة أخرى لم يعشها قبلاً.. وهي أيضا كانت ترى منه ما لم يَرهُ أحد غيرها.. لم يجذبها إليه كونه رجل الشرق الساحر.. حلم المرأة الأوروبية بالميراث.. ولربما هو حلمها في ميراثنا نحن فقط، وقد خدعنا السابقون.. كما يخدعنا كثير ممن سبق ولحق.. وإنما كان الجاذب لها هو سحر الكلمات المغلّف بهذا الغموض وتلك الرزانة التي يتسم بهما (مراد).. فهو روائي طموح.. لا يكتب إلا بشغف.. فيكاد يموت ويحيا مع وقع ما يكتب.. هو مؤمن أن الأديب شبه نبي.. وأن عليه أن يقوم بدوره التاريخي تجاه الجنس البشري من تنوير وتثقيف وفلسفة للحياة في صورها المختلفة.

كان شرقياً.. كان شغوفاً.. وكان أديباً مثقفاً..

كيف لا تقع (ليندا) في حبائل رجل كهذا لا يختلس النظر إلى نهديها وردفيها فور إن تقع عليـها عيناه؟! كيف لا تحبه وغموض الرجل إغراء وكلماته المنمقة فتنة..

لقد وجد كلٌ منهما في الآخر ما كان يظن أنه يفتقد...

حتى وقع الصدام الأول..

هي تراه تجربة مثيرة ومثرية لحياتها..

هو رآها مرفأً لسفينته وشاطئاً تنتهي عندها رحلته....

هي أرادت حياة.. مغامرة...

هو أراد حياة... مستقرة..

رأت فيه الصديق الحميم.. ورأى فيها الزوجة والسكن..

ولما أوشك كل شيئ أن يصل لنهايته ويتحتّم ما سبق وأن تحتّم.. رضخت.. أجل.. فتاة الغرب لم تُرد أن تفلت هذا الشرقي من يدها.. ولم ترغب له أن يغادر حياتها.. على الأقل ليس بعد..

وإن كان الزواج هو ما أراد.. فليكن!!!!

مرّت الطقوس به كالحلم.. كان زواجاً مدنياً ولكنه تم في حديقة وفي وضح النهار... وبالرغم من رفض أمه لهذه الزيجة.. إلا أن هذا لم يمنعها أن تستقل الطائرة وتحضر زفاف وحيدها بل وتضطر أن تتقبل هذه الغريبة تماماً عنها كابنة لها لم تلدها.. بل وتوصيها برجلها الباقى خيراً وترجوها أن تساعده في العودة سريعاً للديار حيث الدفء والترحاب والكثير من القصص والذكريات عن زوجها الراحل.. ذلك الرجل الذي لم تمكّنها الاقدار من أن تتعّرف عليه وتدرك أن رجلاً عظيماً كان من الممكن أن يكون جَدًّا رائعاً لأولادها.. بل إنه يوماً ما كان يعمل في بلدها لذا فهي تعرف الكثير من الأماكن هنا وها هي الأقدار قد غزلت شبكتها بطريقتها التي لا نعرفها ليجتمع بسببها (ليندا) و(مراد)..

لم تخف (ليندا) عن (مراد) انبهارها بوالدته.. بل وأمنيتها في أن تتمكّن من أن تحبه بنفس القدر الذي أحبت به والدته زوجها.. وبعد كل هذه السنوات..

ولكن الغريب أن هذا القرب كان قريب الشبه بإيكاروس.. فقد أذابت

حرارة الشمس أجنحتها الشمعية ولم يبق لهما من الشمس سوى حمأتها وشدة وطأتها..

الأديب الشرقى الغامض المثير صار ذكراً متخلفاً رجعياً متزمتاً عاطلاً متحكّماً ولا يطاق..

والأنثى الشقية المرحة المثقفة الفاتنة صارت امرأة مستهترة جامحة غير مسئولة سكّيرة لاهية ولا يمكن معاشرتها..

وحين قررت (ليندا) ما قررت.. كانت تعلم بأنها تدق المسمار الأخير ولكن الفتيل كان قد اشتعل ولم يكن ثمّة طريق لاخماد ما بدأ بينهما من افتراق...

والمسمار بالمصادفة كان اسمه (هنرى).. صديقها الحميم السابق قبل الزواج بـ (مراد).. والنعش كان سريرها وفي بيتها...

كل تجارب (مراد) لم تكن لتؤهله لتحمّل مثل هذه اللحظة القاسية.. لم يكن مندهشاً.. فقط لم يكن مؤهلاً.. ليس لديه الخطة المناسبة للمواجهة..

هو امتحان لم يدرس منهجه.. بل ربما لم يكتبوا مقرره بعد.. ألم شديد يخترق صدره كالطعنة.. وعقدت الهزيمة لسانه فصيّرته تمثالاً أخرس.. وفي لحظات تلاقت أعينهما.. (ليندا) لا يسترها سوى جزء من ملاءة و(هنري) نائم بجوارها مفوّتاً على نفسه المشهد السينمائى المثير.. و(مراد) واقف بباب غرفة النوم يتشظّى الضوء من الخارج حول جسده المهزوم مخترقاً ظلام الداخل المحمّل بالقهر والألم.. لم ينبس ببنت شفة... وهي لم تحاول أن تدافع أو تبرر.. فقط قالت جملة واحدة..

ـ (مراد)... لقد انتهى كل شيئ..

جملة موجزة لكنها لخّصت كل شيء بلا تقصير أو افتراء..

(مراد).. لقد انتهى كل شيئ... أفِقْ يا عزيزي.. لقد خسرت..

لكنه لم ينطق.. ارتعش وتألم كما لم يتألم من قبل.. أحس بقبضة قاهرة قادرة تعتصر قلبه حتى تنتزع منه الروح أو تكاد ولكنه لم ينطق.. لم يصرخ.. لم يهاجم.. لم يبكِ.. لم ينهر ويسقط أرضاً.. ظل واقفاً شامخاً صامداً ولكنه مهزوم..

(مراد).. لقد انتهى كل شيئ..

لذا فإنه سيعود.. سيشارك والدته الحزن والهزيمة والألم.. وهل تبقى له من حطام الدنيا غيرها؟!

* * *

(٢)

العمر لحظة لا تكدر صفوها إن سمحت لك الأقدار

هذا ما تعلمته (إيناس) من رفيق دربها وحبيبها وزوجها ووالد ابنها الوحيد.. وهذا ما داومت عليه حتى بعد أن تركها وحيدة رحلتها بلا سابق انذار.. كان لفقده بعد سنوات عشر من زواجهما تأثير قاهر لكأنما اختارها الموت هي ولم يختره هو.. ولكن سنوات عشر مع والد (مراد) كانت تكفي لتدرك أنها قد عاشت حياة كاملة معه.. ليس فقط لعمله في السلك الدبلوماسي وكثرة أسفارهما معاً... فالسفر في حد ذاته لم يكن لينقص الفتاة الأرستقراطية التي جابت نصف العالم قبل أن تلتقيه لتسافر معه نصف الكون الآخر.. كان التميز في نصف رحلتها الثاني أنها كانت رفيقة والد (مراد).. ذاك الماهر تماماً في صنع لحظات حياته.. يشهد على ذلك كمّ الصور والقصاصات الورقية وبطاقات الإهداء والمئات من الأشياء التي لا يعرف معناها ومغزاها سواها.. هذه الثروة التي لا تقدر بثمن احتفظت بها داخل صندوق صغير من الصدف والمصنوع يدوياً بشكل زخرفي أخّاذ يمثل حورية فاتنة تستعرض جمالها على صخرة بجوار شاطئ بحر.. بهذه الكيفية تحتفظ لنفسها بوجوده ودفئه كلما عنّ لها ذلك.. فتستخرج من كنز ذكرياتها ملمحاً.. لحظة مخلدة.. تعود اللحظة

طازجة حية كأنها حدثت للتوّ.. لا تغالبها الدموع ولكن يتسلل لها الابتسام فتجتر اللذّة الخالصة عوضاً عن مرارة الفقد وألم الفراق...

غريبة هي طرق معالجتنا للأشياء.. فيبدو المختلف دوماً أقرب ما يكون للمجنون.. حتى لو كان المختلف على حق.. ترى نفسها المبصرة الوحيدة في جزيرة العميان.. وبدلاً من أن يؤلمها هذا أو يشعرها بخزي أو عار تظل ـ هي ـ محتفظة بألوانها دافئة وبتصرفاتها الخاصة وأفكارها التي تشرّبتها منه هو.. فلا يمر عليها يوم بلا عمل مميّز.. فها هي اليوم ـ ككل يوم ـ تمر بمحل العم (فتحي)... تبتاع لنفسها زهرات اليوم الأربع والعشرين... كل ساعة من ساعات اليوم بزهرة.. ولأن عمر الزهر قصير.. تدرك دوماً أن العمر ـ أيضاً ـ قصير ويستحق منا الحياة.. تستمتع بتوزيع زهراتها الأربع والعشرين في أرجاء شقتها الواسعة في حي المعادي الجميل الهادئ..

وحيدة هي.. زوج فارقها وابن اختار لنفسه الاغتراب.. تجهز إفطارها الشبيه بإفطار الفنادق.. وتختتم تدليل نفسها بقدح (النسكافيه) الساخن ولا تنسى أن تتشمم رحيقه كأنه زهرة من زهورها اليانعات..

نشيطه كطائر مبكّر تذهب للنادي.. تمارس رياضتها اليومية.. تقابل صديقاتها.. تساعد أعضاء النادي في أعمال خيرية.. فاليوم يجلب أعضاء النادي بعض من ملابسهم التي ما عادوا يرغبونها ليتبرعوا بها للأقل حظاً.. تنهمك (إيناس) ـ التي تبدو أكبر المتطوعين ـ في تصنيفها واكتشاف بعض العيوب التي قد لا تكون ظاهرة للعين غير الخبيرة.. ولا تتوقف عند هذا الحد بل إنها تخرج من حقيبتها عدّة خياطة كاملة فتعمل على إصلاح ما تقدر عليه.. وما لا تقدر عليه تضعه جانباً.. لتأخذه بنفسها لعم (صدقي) الرفّا العجوز.. فيعود كل شيئ جديداً أنيقاً جميلاً كالكون في عينيها..

بعد النادي تسرع الخطو حثيثاً لتلّقي درس اللغة الإسبانية التي تود أن تضمها إلى لغاتها الخمس اللاتي تتقنهن ولا يعرف أحد على وجه الخصوص

ما الذي ستستفيده هذه المرأة الستينية من تعلم لغة جديدة؟!

تتشعب وتتفرع نشاطات (إيناس) اليومية... وتختلف يوماً عن يوم.. فيكاد يكون اليوم ضيقاً عليـها وعلى ما ترغب في فعله.. فبعد درس الإسباني.. سيأتيها مجموعة من الأطفال لتعطيهم دروساً في عزف البيانو.. ثم اجتماع لنادي الروتارى.. ثم سهرة مع صديقاتها للعبة البريدج الأسبوعية..

ربما ستمر بملجأ الأيتام القريب من بيتها تعطيهم جزء الملابس الذي انتهت من فرزه وتصنيفه لو اتسع الوقت لذلك..

وبالطبع ستختلي بنفسها وصندوقها الأثير غير ذات مرة خلال هذا اليوم العادي من أيام حياتها.. تستمد من هذه الخلوات طاقة إيجابية لا تنتهي.. ربما هي الشيئ الذي يساعدها على الحياة بهذا النسق وهذه الكيفية...

اليوم بالذات هي فَرِحة أكثر من أى يوم.. فغداً ستستعيد أحد جناحيها المقصوصين.. سيأتيها الحبيب الغالي (مراد).. تعرف أنه مهزوم متألم.. تعرف أنه ليس (مراد) الذي غادرها والأحلام أنفاسه التي يتنفسها والسعادة هي الأمل الذي كان يراه في الأفق القريب ويؤمن بوجوده.. تعرف أيضاً أنها قادرة على إخراجه سريعاً من نكسته ففي البداية والنهاية هو جزء منها.. ولا يمكن للجزء أن يتمرّد على إرادة الكل.. وإذا كانت الشجرة صلبة مورقة يانعة الثمر.. فلابد للفرع أن يستعيد عافيته سريعاً..

استخرجت من صندوقها صورة قديمة تجمع ثلاثتهم... هي و(مراد) والوالد الراحل.. وكأنها امتطت صهوة آلة زمن عاودتها اللحظة حيّة ملبّية.. إنها صورة عيد ميلاد (مراد) الثامن.. حيث اشترى له الوالد الدراجة التي كان يرغبها.. وأعدّت هي كعكة عيد الميلاد بنفسها... مغطاة بالكرز الأحمر كما يحبها (مراد).. وبينما الجميع مشغول بأغانى عيد الميلاد إذا بوالد (مراد) يميل على أذنها فيهمس في خفوت:

ـ أحبك..

ابتسمت (إيناس) متذكرة تساؤل (مراد) الصغير الواقف بينهما عما يحدث خصوصاً بعد ما لاحظ وجنتي والدته المتوردتين خجلاً.. تضاحكت ـ ووالده ـ مدعّية ألّا شيئ ..

غدا سيعود (مراد).. وستخبره مرة أخرى:

ـ حبيبى (مراد).. لم يحدث شيئ ..

وهكذا سينتهي كل شيئ ..

اعترتها لوهلة غصة في حلقها ـ ونادراً ما يحدث لها هذا ـ متذكّرة أن ثمة مشكلة أخرى ستضطر للتعامل معها لدى عودة قرّة العين إلى أحضانها..

وأدت الغصة في إرادة حديدية.. مذكّرة نفسها أن المشاكل الأخرى موعدها..

أوقاتٌ أخرى..

* * *

(٣)

كُل شيئ صار مراً في فمي بعد ما أصبحت بالدنيا عليما
آهٍ مَنْ يأخذ عمري كّله ويعيد الطفل والجهل القديما
(إبراهيم ناجي)

لم تتخيّل (سارة) أن يأتى اليوم الذي تترك فيها منزلها مجبرة بعد أن استحال عليها العيش فيه.. لم تصدق أن الحب والعطف اللذين عاشت في كنفهما طيلة خمسة عشر عاماً تحت جناح والدها رجل الأعمال المرموق سيتحولان بعد الزج به في السجن في قضية كبرى إلى كابوس يقضّ عليها أحلامها.. وستتحول حياتها إلى جحيم... فالأم لم تتحمل ضغوط الآخرين واستغنت مكرهة عن عِشرة السنين طالبة الطلاق.. ثم ككرة ثلج كبرى بدأت الأحداث المتوالية.. زوج أم أصغر منها بسبع سنوات.. وسيم.. أنيق... معسول اللسان.. دخل حياة الأم في صورة المخلّص والمنقذ.. وكان صعباً للغاية على المطلّقة المجروحة ووالدة الفتاة المراهقة كثيرة المشاكل أن تقاوم هكذا سحر وفتنة.. فها هو رجل أقرب ما يكون لنجوم الشاشة الفضية لا يزال يراها في

صورة المرغوبة والمطلوبة للزواج.. حتى تبدأ الأيام تكشف المسخ المختبئ تحت الجمال الساطع.. فالزوج الجديد لم يكتف فقط بكونه مدمن قمار وسكّيرٍ أحياناً، خصوصاً إذا ما اشتدت عليه الخسارة.. كما أن استخدامه للمكيفات والمخدرات الخفيفة على مرآى ومسمع من الجميع لم يكن أكثر الأمور التي أزعجت (سارة) من زوج والدتها.. ولأنه لا يمثل تدخلاً مباشراً في حياتها.. بل هو يخص والدتها أكثر...

كل هذا كانت على أتم الاستعداد أن تتقّبله وتتعايش معه وتتغاضى عنه ما دامت الأم راضية.. حقاً لا يهم إن كان يحب والدتها أم لا.. لكل شخص منا اختياراته التي لا يستوعبها الآخرون.. وتوازناته التي لا يعرف مفرادتها ومعطياتها إلا هو.. ولربما كانت صدمة سجن والدها والعار الاجتماعي والضغوط العائلية والنفسية أسباباً تدخلت لتربط الأم نفسها برجل كل همه أن يجد امرأة تصرف عليه وعلى نزواته.. ولكن أن يصل الأمر إلى الاعتداءات المتكررة وبشكل صارخ أحياناً عليـها وعلى جسدها فهو ما لم تستطع (سارة) أن تقبله أو تتعايش معه.. وبالرغم من تركها للمنزل منذ ما يقرب من ست سنوات أو أكثر.. إلا أن أحساسها القاتل بأنها عارية يقشعر بدنها من البرد القارص وطعنة لا تُحتمل تخترق أعلى بطنها تحت القفص الصدري مباشرة لا يزال يعاودها طازجاً كالمرّة الأولى.. وقوياً أكثر كل مرّة.. يهتز كيانها وتتزلزل تحت وطأة هذا الإحساس.. هذا يحدث كل مرّة تذكر المرات العديدة التي كان ينسل فيها في جنح الظلام يجاورها على السرير وهي نائمة فتمتد يداه تعبثان بها وبجسدها البض الفائر الفتيّ الرائع.. هذه يد تمتد تحت ملابسها فتدفعها بعيداً.. محاذرة ألا تند عنها صرخة توقظ والدتها النائمة.. اليد لا تيأس والمقاومة تزداد عنفاً.. تنجح اليد أحيانا فتخترق وتلمس وتهصر وتعصر.. وتنجح المقاومة أحياناً فتمنع تطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباه.. تذكر التحول في موقف الأم من شكواها المتكررة وتكذيبها الدائم لخيال الفتاة المراهقة الجامح الذي يختلق المواقف

للرجل الذي وقف بجوارها بعد أن تخلّى عنها الجميع.. هذه الحجة الفارغة التي صدّقتها الأم وجعلت منها مبرراً لكل موبقات زوجها بل وتنحاز إلى صفه في مواجهة ابنتها الوحيدة.. هل لأن (سارة) كانت تحب والدها أكثر.. هل لأن (سارة) تذكّر والدتها بما قاسته بعد ما حدث لأبيها... هل كانت أمها تلومها ولكنها أبداً لم تصرّح؟؟؟؟

هكذا مرّت الأيام حتى جاءت الليلة..

هي كالأمس.. لا تستطيع أن تنساها مهما حاولت..

الأم تبيت لدى الخال المريض بالعناية المركزة في المستشفي بين حياة وموت... وهكذا ظن زوج الأم أنها فرصته السانحة لينقض على فريسته بلا رحمة.. زجاجة الخمر في يده.. ملابسه الداخلية المبتلة بالعرق.. رائحته الخانقة وهو يقترب منها.. وكانت المرة الأولى التي فكرت أن تقتله.. أن تتخلص نهائياً من هذا الكابوس.. مازالت أصوات الأواني الزجاجية وهي تتهشّم أرضاً تؤذى أذنيها.. لطماته على أصابع البيانو الخاص بها وهو يلاحقها عبر أرجاء الشقة.. الكراسي المرتطمة بعنف بالحائط مخطئة إياها في أعجوبة... غثيان وبكاء وصراخ وانهيار.. ولكن لا مجيب..

هكذا أسلمت (سارة) ساقيها للريح ولم تعد ثانية..

وكريشة تتقاذفها نسمات..

انتقلت للعيش مع عمتها بالإسكندرية قليلاً.. ثم ابنة عمها المتوفى والمقيمة مع زوجها في السادس من اكتوبر.. انتقلت بين الأعمال المختلفة.. ما بين بائعة في محل ونادلة في كافيه حديث.. عملت كممثلة مساعدة في مدينة الإنتاج الإعلامى.. قدّمت لعدة مسابقات لاكتشاف المواهب استغلالاً لصوتها الجميل.. مساعدة مخرج.. بل مقدّمة برنامج مسابقات..

هنا تند عنها ضحكة خافتة وهي تذكر طريقتها المستفزة في الحديث مع

المتصلين والاتصالات الوهمية التي كان يقوم بها العاملون في الاستوديو لتحفيز المشاهدين على الاتصال.. وبالرغم من المقابل المادى المجزي.. تركت العمل سريعاً لإحساسها بالسخف والتفاهة.. ناهيك عن إحساسها بأن الأمر كله لا يعدو كونه جريمة نصب..

وهكذا أيضاً انتقل بها المقام بين الأماكن والوظائف والأشخاص.. استقلت بنفسها واعتمدت على ذاتها.. تهربّت من الإيجار أحياناً وتعرضت للمضايقات كثيراً..

عانت دوماً من اقتراب الآخرين منها.. فبالنسبة لـ (سارة) كان الاقتراب غرض والغرض مرض... لذا فهي لا تسمح به أبداً..

المجتمع لا يقبل أن تعيش فتاة في عمرها مفردة.. أن تنتقل بين المحطات.. لا يكاد أحد يتركها في حالها.. هم لا يصدقونها ويفكرون دوماً بالظنون.. والظنون آثمة.. بعضها أو كلها.. وفي البداية أو النهاية هي لا تعدو كونها ظنوناً!!!

جربت الحب مرتين.. يبدأ الأمر لطيفاً خفيفاً شفافاً هامساً.. ويتطور جريئاً سريعاً قوياً حاسماً وقحاً..

لم يأتِ في حياتها بعد مَن يصدّق أنها لم تكن تمارس الجنس كل ليلة مع زوج أمها وأنها تعرضت للاغتصاب مائة مرة على الأقل وأن دخلها الرئيسي هو من بيع الجسد!!!

هكذا وصل الأمر بصاحب المنزل الذي تؤجر منه غرفة وضيعة متواضعة فوق سطح العقار.. هو لا يعرف سوى ذلك ولا يصدق غيره..

هكذا وجدت (سارة) نفسها مضطرة مرّة بعد مرّة أن تترك ما تتعايش معه على أنه منزلها..

وتسلّم نفسها ثانية.. كريشة مطيعة..

لمهب الريح!!!

* * *

(٤)

يختار المرء.. فتتحول اختياراته إلى حاضر ومستقبل..

منذ اللحظة الأولى تبدو (نجوى) كما لو كانت مُطارَدة من لعنة اختياراتها.. فقد تزوجت (مجدي) متحديّة إرادة أهلها الذين لم يسترح فؤادهم يوماً لاختيارات هذا الشاب زائد الطموح ولا قراراته..

القطار إذا ما سار أسرع مما يجب فثمّة حادثة مروّعة في انتظاره...

وحتى عندما شاركته العيش ورزقهما الله طفلتهما الوحيدة الجميلة (سارة) وبدأت كل خيوط اللعبة تتكشّف لها.. اختارت (نجوى) الاستمرار مع زوجها مخاطِرة بأن تنتهي هذه الحياة بكل ما فيها ما بين لحظة وأخرى..

أدركت لدى وقوع هذه اللحظة والزج به في غياهب السجن أن سبعة عشر عاماً من حياتها أهدرتها مع اختلاق الأعذار في كل المواقف والأوقات.. فالعذر الجاهز أفضل من المواجهة أحياناً.. كما أن الأعذار لا تفنى ويمكن استحداثها من العدم.. لم يُخلق بعد الشخص الذي فشل في أن يختلق لنفسه العذر في أي موقف كان..

من قبيل أنها تحبّه.. أنها ستقوّمه.. أنها لا دعوى لها.. أنه حنون مع ابنتهما...

أنه سخيّ كريم.. أنه مفرط الرجولة ولحظاتها الحميمة تستحق التضحية بعمرها لو لزم الأمر.. أنه يؤمّن موقفه جيداً ولن يُسجن .. أن لو ما يقوم به خطأ لعوقب منذ مدة.. أنها قد مرّ بها الوقت وصارت بلا بدائل..

أن.. وأن... وأن...

المرء لا يعلم متى تحين لحظة أي شيئ في هذه الحياة.. جاهل هو الإنسان..

هكذا جاءت اللحظة التي كانت تظن أنها لن تأتي...

أن يعيش الإنسان عمره كله عبداً لأعذار مُخْتَلَقة من عدم يصير ضعيفاً هزيلاً غير قادر على التكيّف مع أي تغيير إلا باختلاق أعذار جديدة.. وهكذا جاء الدور على اختيارها الجديد.. فاختارت الانفصال.. الذي يبدو قد جاء متأخراً جداً.. بل وأنه على شكله هذا قد أضفى عليـها نوعاً من النذالة لم تقصدها.. هي فقط جبانة ولا تستطيع المواجهة.. هي فقط لا تتحمل الضغوط.. لا ترغب في أن تعتمد على نفسها.. هي اعتادت أن تخطئ.. وسيكون صعباً جداً عليـها أن تجتهد لتصيب.. أتقدر هي أن تتحمّل مسئولية نفسها.. وابنتها المراهقة (سارة) في آن معا!!!!

هكذا حاولت (نجوى) ولم تفلح.. فاستسلمت لأول يد اقتربت منها لتلمسها.. استجابت لأول عين مُعجَبَة ووقعت صريعة أول كلمات معسولة ضاجعت آذانها.. صارت متيّمة منوّمة مسلوبة الإرادة.. وهي التي كانت بلا إرادة أصلاً.. فلم تقاوم ـ ولو قليلاً ـ الوقوع في حبائل شباك (جميل).. الرجل الذي يصغرها بأعوام سبعة... ولكن ما جدوى فروق السن في حب وزواج البالغين؟!

كان جيداً في الفراش كسابقه.. ولم يترك لها فرصة التفكير.. ولم يجعلها يوماً تدرك كُنه ما يدور حولها من الحياة.. كان مخدِّراً من نوع جديد.. جيد للدرجة الذي يُفرّق بين الأم وابنتها.. ومع مرور الأيام صارت (نجوى) و(سارة)

مجرد غريبتين على جزيرتين منعزلتين... آخذتان في التباعد يوماً بعد يوم..

لا تصدّق أن العاشق (جميل) شيطان يلهو بها وبابنتها.. هو إنسان رقيق وحساس... لا يهمّها أنه صار بلا عمل.. أنه مفلس.. أنه مقامر..

أنه.. وأنه.. وأنه..

كل هذا يذوب لدى أول وقت حميم تمضيه معه.. قادر على أن ينسيها حتى ذاتها لو أراد... لا تنكر أنه نوع من الإدمان... والمدمن مريض.. لا حول له ولا قوة.. فهي لا ترغب ـ أو لا تقدر ـ على أن تقاومه..

إلا أنه حتى المدمن.. يمكنه أن يشفى.. أو يفيق..

وقد أفاقت (نجوى) بعد واقعة هروب (سارة).. حاولت أن تبرّر الأم لنفسها كما حاول (جميل) أن يبرّره.. فقد أخبرها أن الفتاة اللعوب على علاقة بشاب تعرفت عليه من «الإنترنت» وأنها لا بد هربت معه... كان فيما مضى قادراً على أن يزرع أي حقيقة يريدها داخل جمجمتها الفارغة.. ولكن هذا وحده لم يكن ليفسّر الفوضى التي كان عليها المنزل.. الأواني المتكسرة.. الكراسي المتناثرة.. أصابع البيانو التي أصابها العطب.. وجاءت لحظة التنوير.. وبدأت تستعيد كل المواقف السابقة وتراها من المنظور الجديد.. جاءت أيامها التالية مع (جميل) بطيئة سخيفة.. خصوصاً بعد أن بدأت مواردها في النفاد.. ومرّة بعد مرّة تكتشف الحقيقة متأخرة..

في البداية اطمأنت على (سارة) من أقاربها.. ووجدت أن في ابتعادها عنها وعن المنزل أماناً لها أكثر.. ثم هي لا تريد لضحايا زوجها ـ الجديد ـ الزيادة..

بابتعاد (سارة) عن المنزل تغيّرت معاملة (جميل) لها كلّية.. وتطور الأمر فبدأ يضربها ويسبها.. زيّن البكاء لياليها وصار الحزن رفيقها.. ثم انقطعت عنها أخبار (سارة) وفقدت متابعتها لها.. فزاد ثقل الهواء... وجاء (جميل) خاسراً سكراناً ذات ليلة.. ليضربها ويسبّها كعادته هذه الأيام... كالمجذوب

بدأ يقلّب في الأدراج.. بين طيّات الملابس.. حتى تفتّق ذهنه أن يأخذ صندوق مجوهراتها.. مدخّراتها الأخيرة والإرث الوحيد الذي كانت تفكر في أن تهديه لابنتها الوحيدة..

تذكّرت (مجدي) زوجها الأول.. وقارنته بزوجها الحالي (جميل).. أدركت أنها كانت خاسرة منذ البداية للنهاية وأن خسارتها بلا بديل..

هكذا وجدت نفسها مدفوعة لأن تحمل التمثال المعدني الخاص بـ (ڤينوس) والذي يزيّن «الكومودينو» الخاص بها لتنهال به على أمّ رأس (جميل) من الخلف..

مرّة ثم مرّة ثم أخرى..

لا يمكنها أن تتوقف حتى عندما سقط (جميل) أرضاً والدماء متناثرة حوله من كل جانب..

ابتسمت في رضا.. وللمرّة الأولى تجد في نفسها ثقة وثباتاً لدى تناولها سماعة الهاتف..

ـ آلو.. بوليس النجدة.. أنا قتلت زوجي..

آه.. قتلته..

نعم.. كان يسرقني ..

سرق مني كل شيئ.. سرق عمرى كله..

سرقنى يافندم..

* * *

(٥)

«لا تلمني إن تحرّقت ففي أضلعي عاصفة مضطرمة
كلما هدهدتها أنكأها شجن أسكن فيها ألمه»

(حمد الحكمي)

كانت عودة (مراد) لمنزل العائلة محرّكاً نشطاً لذكريات الماضي الدافئ.. أحدثت الصدمة لدى (مراد) نوعاً عميقاً نافذاً من الندم المصحوب بالألم.. لذا فقد كانت لحظة دخوله مكتسية بالصبغة السائدة لديه.. ندم على ترك هذا المنزل ذات يوم على غير هوى قاطنيه وألم لأن شيئاً ما لن يعود كما سبق..

تقع عيناه أول ما يدخل على صورة الوالد ـ السفير السابق ـ بحلّته الأنيقة مبتسماً متألقاً كبدر ليلة التمام.. ثقة مفرطة تمنح الناظر جزءًا من ثقة حتى لو كانت مزيفة.. تبدأ الذاكرة تسترجع لحظة سقوطه عن الدراجة التي أحضرها الوالد وإحساسه بالقهر والفشل والهزيمة.. ما أشبه الليلة بالبارحة.. نظر له الوالد نفس هذه النظرة التي مازالت الصورة الجامدة ثنائية الأبعاد تحتفظ بها.. أخبره أنه لا يوجد ثمّة نجاح بلا فشل يسبقه وليستشعر الإنسان لذة

انتصاره لابد له من أن يتذوق مرارة انكساره.. بيد حانية دافئة مسح دمعتين كانتا تنسلان من بين أجفانه في خيانة علنية.. أتمتد الآن يد الوالد بنفس الدفء والحنان لإعادة المشهد حياً.. أم أنّه الآن عليه أن يقاسي معاناة الفطام؟!

نفس الصورة هي أول ما نظرت إليه (إيناس).. كانت تنظر للزوج والحبيب والقدوة ورفيق الدرب.. تسأله المشورة عن كيفية التعامل ببساطة ـ كما عوّدها ـ مع الأيام التالية.. الآن تستحضر ذكريات هذه الصورة.. كانا مدعوين لحفلة أقامتها الخارجية الأرجنتينية.. والموسيقى تعزف لحناً من ألحان التانجو التي تجهلها.. إلّا أن (هاشم) ـ والد (مراد) ـ اقترب منها مادّاً يده في تهوّر.. هذا مخالف للبتروكول حتماً.. إذا كان هو يعرف أنها تجهل مثل هذه الرقصة فلا يجب عليه أن يطلبـها للرقص حتى لا يعرّضها أو يتعرض بسببها للاحراج أمام تلك الهيئة الرفيعة من دبلوماسيي العالم...

كان يرتدي نفس هذه الحُلّة..

نفس هذه النظرة...

نفس مقدار الثقة..

كالمسحورة وجدت نفسها تقف مستجيبة تسبقها يدها الممتدة.. أخبرها أن التانجو هو الحياة وأنها يجب عليـها أن تترك نفسها للموسيقى والباقي سيحدث من تلقاء نفسه..

مرّ الوقت ولم تدر بنفسها كم مرّ.. غيبوبة لذيذة ممتعة غرقت فيها ولم ترغب أن تُفيق.. وحينما فتحت عيونها للمرة الأولى كان كل من بالحفل يلهب الأيدي بالتصفيق.. ووجدت نفسها منثنية على نفسها مُرجعة نصفها الأعلى للخلف مسنودة بزند (هاشم) القوي وساقها اليسرى مرفوعة ممتدة بامتداد جسدها باستقامة في وضع لم تتخيل نفسها قادرة على اتخاذه.. ودون خجل قبّلته في رقة أمام الملأ.. هنالك طلبت من مصوّر الحفل أن يلتقط

لزوجها صورة منفردة.. كأنها ودّت أن تحتفظ به على هذا الشكل وهذه الكيفية...

وكان لها ما أرادت..

كانت هذه الصورة..

في رقة احتضنت (مراد) من الخلف.. وأحاطت كتفيه بكفيها.. مال برأسه مقبّلاً يد أمه الحانية ومطمئناً إياها أنه بخير.. مستعيراً جملتها له وهو صغير..

ـ لم يحدث شيئ...

كانت هذه الجملة التي نطق بها لسانه.. لكن الجملة التي كانت تتردد داخله كانت في الواقع جملة (ليندا)..

ـ (مراد).. لقد انتهى كل شيئ...

وتحت ذرّات مياه الدش الباردة ودّ لو غسل عنه ما يعانيه أو يهديه تفكيره للإجابة عن تساؤلاته... بينما (إيناس) في تقليد أمومي صرف كانت تعدّ لولدها الوحيد ما يحب من صنوف الطعام للغداء... كلّه دفعة واحدة..

قرار واحد خلُص إليه من هذا الدش..

عليه أن يبدأ من جديد.. لابد له أن يستأنف العمل في مشروعه الخاص وحلم عمره.. تلك الرواية التي يعكف على كتابتها منذ سنوات.. لابد له أيضا أن يبحث عن عمل ما يدرّ دخلاً.. جريدة ما أو مجلة أو حتى برنامج تليفزيونى يعمل فيه معداً... المهم أن يعمل ويشغل وقته.. فوقتك مع نفسك المعذّبة يتحول إلى أبشع أنواع التعذيب... وهو حقاً يحتاج لفرصة جديدة مع النفس.. بلا تعذيب ولا تساؤلات.. سيأتى اليوم حتماً حيث يصل لما جهل من حقائق.. أو تنعدم لديه قيمة المعرفة فيتناسى الأمر برمّته مستأنفاً الحياة.. المهم الآن أن يجتاز الآن.. ومن المهم للغد.. أن يأتى غداً..

انتهي الدش.. وأكل ربع الغداء.. ليذهب كل منهما إلى غرفته يستأنف اجترار الذكريات..

أمسك (مراد) بعصا «البيزبول» التي لا يدري لماذا اشتراها ملوّحاً بها في الهواء.. يقّلب أوراقاً مبعثرة على مكتبه القديم.. يملّس بيديه على أغطية السرير.. ليحس تقلصاً عارضاً.. فأيّ ألم يحمله له آخر سرير؟! مجموعة من نماذج سيارات قديمة تصطف متجاورة على رف بجوار الدولاب.. الذي فتحه مستقبلاً رائحة الخوخ الذي تضعه الأم أقراصاً في كل دواليب ملابس المنزل منذ أن وعى على هذه الدنيا.. إن أمّه لجميلة حقاً حتى وهي على سنّها تلك... هو لم يقابل يوماً امرأة مثلها ويظن أنه أبداً لن يقابل...

نفس اللحظة التي كانت (إيناس) تفتح صندوق ذكرياتها مع (هاشم).. الذي عرّفها على أقراص الخوخ المعطرة... أمسكت بقصاصة لأول عبوة من هذه الأقراص أهداها لها (هاشم) منذ زمن سحيق.. تشمّمتها في شبق.. مازالت رائحتها طازجة كالأمس.. لا تدري أهي تشمّمت رائحة الخوخ في قصاصة العبوة أم تشمّمت رائحة اليد التي يوماً لمست العبوة لتهديها لها؟! منذ تلك اللحظة و(إيناس) تستلم كل عدة شهور طرداً يحمل لها هذه الأقراص التي لا مثيل لها في أي مكان آخر..

تركت غرفتها وذهبت لـ (مراد).. الذي كان لا يزال يسبح في بحر مقتنياته القديمة.. اقتربت منه كنسمة حانية في ليل صيف.. وفي هدوء قالت:

ـ (مراد).. أيمكنني أن أحضنك؟!

اندفع الابن المحتاج أكثر ما يكون لهذا الحضن ليتماثل انطباع جسديهما لدى الاحتضان في توافق عجيب.. تكاد تبصر ألقاً ما اعترى جسديهما لوهلة.. أيكون الألق اللحظيّ هذا طاقة تولدت من اتحاد جزء مع كل؟! أم عودة فرع إلى أصل؟!

أتكون هذه الطاقة هي ما يحتاجه (مراد) لاستكمال الطريق والعودة مرّة أخرى لقضبان قطار الحياة الذي لا يتوقف؟!... ربما..

* * *

(٦)

هدنة مع النفس.. هدنة مع الحياة.. قرار نابع من نفس.. هكذا تستمر الحياة....

لم تتأثر (سارة) كثيراً برفض حارس العقار الجديد الذي انتقلت إليه أن يحمل لها حاجياتها خصوصًا مع تعطّل المصعد الخاص ووقوع شقتها التي تؤجرها بالمشاركة في الدور السابع.. الحارس الذي يبدو عليه أنه لم يتطبّع بعد بطبائع أهل المدينة أو أن وازعاً دينياً خاصاً به جعله يظل رافضاً لمبدأ سكن فتاة بمفردها.. حتى ولو بالمشاركة مع أخريات.. لا يهم لو كانت هذه الفتاة طالبة جامعيه تطلب العلم ولو في الصين أو فتاة ليل جامحة ترغب في حوائط أربعة لاحتواء جسدها المكدود الغارق في بحور الرذيلة واللذة المحرمة.. كلاهما لدى عم (حسين) سيان.. وكلتا الفتاتين ملعونتان وتستحقان العذاب والويلات والثبور..

عادة ما تتناول (سارة) هذه المواقف بمزيج فريد من مرارة وسخرية ينتهيان بصمت عجيب ونصف ابتسامة مستعصية التفسير على شفتين لا تنفرجان..

تعارف موجز تم مع شريكتيّ السكن.. ظروف شبه متشابهة ونظرات ريبة

متبادلة.. بدأت بعدها في التعرف على غرفتها التي شغرت منذ أسبوع تقريباً في انتظارها.. معتادة هي على لم أشيائها وفكّها في سرعة.. حتى كادت تكون محترفة في مثل هذه الظروف.. كما أنها صارت لا تحتاج وقتاً للتكيّف أو التواؤم مع الخارج والآخرين.. كما أنها أيضا ـ ورغم صغر سنها ـ أصبحت خبيرة شخصيات من الطراز الأول.. فهي قادرة على قراءة الوجوه.. والعيون.. ونبرات الصوت.. بل ولغة الجسد أيضاً.. كأنها ضابط مخابرات محترف.. ومع كل ما تعرضت له (سارة) من قسوة ولا منطق إلا أنها لا تزال تحتفظ بهذه الأنثى الرقيقة الناعمة.. وهو احتفاظ فعليّ وليس سلاحاً فتاكاً من أسلحة الحياة تجيد استخدامه.. هي طبيعة حقيقية لا مراء فيها ولا تمثيل..

نظرت لصورة والدها في إطارها الخشبي الأنيق مدركة أن كل ما عانته بدأ منذ اللحظة التي فقدت فيها حمايته.. تذكرت أنها فور بلوغها سن الرشد بادرت بزيارته في سجنه لتجد أن صحته تدهورت بشكل مخيف.. ولم يمر عليه وقت طويل حتى مات في محبسه.. هي لا تعلم هل عرفت أمها ذلك أم لا.. ولوهلة عاودتها فكرة العودة.. فهي الآن صارت قادرة على مقاومة (جميل).. بل ورهط من شاكلته.. ما تخشاه ويجعلها مترددة على الدوام هو استقبال (نجوى) لها.. أمل (سارة) في الاجتماع بأمها ثانية في عالم جديد سعيد متفائل كان الطاقة التي أعانتها على الاستمرار كل هذا الوقت.. وفقدان هذا الأمل باستقبال فاتر أو سخيف سيقتلها حتما.. وهي غير مستعدة بعد لأن تموت..

الموت..

أثارت الكلمة داخلها أحاسيس شتى...

فالموت كان أمنيتها الوحيدة قبل الهروب..

كان رغبتها تجاه (جميل) قبل الهروب..

كان ما تمنته كثيرا بعد الهروب..

بل وواجهته عدة مرات بعد الهروب..

الموت هو الذي اقتنص والدها الحبيب.. لا يهمها إن كان مجرماً أو لا.. الأولاد لا يهمهم جرائم آبائهم.. المهم أنه كان نعم الأب لها.. حنوناً كريماً سخياً دافئاً محباً.. كان بطلها ومنقذها.. وقد ضاعت من بعده مرتين.. مرة بسجنه.. والثانية بوفاته..

الموت.. يظل الحقيقة الوحيدة المؤكدة بعد الميلاد....

أمام المرآة فتحت دلاية على شكل دائرة مزركشة عليها زخارف إسلامية.. بالداخل صورة لوالديها في صفاء وحميمية تمتعا بهما في بدايات الزواج.. دلاية لا تفارق صدرها أبداً..

اليوم ستلتقى بأعضاء فرقة موسيقية شابة يرغبون في مطربة رئيسية.. تحتاج للراحة قليلاً قبل أن تقابلهم.. وضعت سماعات الـ «إم بى ثري» في أذنيها.. أغمضت عينيها واستسلمت لمملكة الخيال.. يراودها خاطر أنها تمتطي حصاناً أسود معرفته بيضاء وكذلك شعر ذيله ومثلث في مقدمة رأسه.. تجري به على شاطئ بحر مرتدية فستاناً خفيفاً فضفاضاً بلا أكمام.. تدغدغ جسدها قطرات ماء البحر المتكسرة بذرات الهواء.. تغمض عينيها والحصان يسرع أكثر وأكثر ويبدو الشط بلا نهاية.. أصوات نوارس بعيدة تصنع الموسيقى التصويرية للحدث.. تبدأ موسيقاها حالمة جميلة تنبع من داخلها وتسمعها فتصير في حالة انفصال كامل عن الواقع والذات بل وسائر الكائنات.. ترتسم ابتسامتها الغامضة على شفتيها المضمومتين.. بينما أغنية جديدة تبدأ في الـ «إم بي ثري»..

لم تعلم (سارة) أنه في هذه الليلة بالذات ستقابل مجموعة من الغرباء الذين سيصبحون كالشكل الهندسي الذي ينقصه جزء مجهول.. وستكون (سارة) هي هذا الجزء.. سيكون صوتها هو النغمة الضائعة لما يعزفون ويغنون.. وسيكونون لها بمثابة بؤرة ضوء صافٍ في ليل حياتها حالك السواد.. (سارة)

التي قد بدأ كفرها بوجود السعادة يزداد يوماً بعد يوم.. تسرب إليها الليلة بعض الإيمان.. وبرغم أنها استقبلت الأمر بابتسامتها الغامضة المميزة التي تختلف تفسيراتها باختلاف المواقف والأحاسيس.. إلا أنها لا تنكر استشعارها لبعض من سعادة.. حاشا لله!!

بيت جديد.. عمل جديد.. ناس جدد..

وهل يبقى شيئ آخر في الحياة؟!

لم يكن معها الكثير من النقود.. إلا أنها قررت أن تكافئ نفسها بشراء عطر جديد.. يغلب عليه رائحة الفواكه.. عطر بهيج إلى حد ما..

وعندما عادت للمنزل.. قامت بالنداء على عم (حسين) الذي جاء متأففاً جاهلاً اسمها وجاهلاً سبب النداء.. إلا أنها فاجأته بورقة حمراء من فئة الجنيهات العشرة..

ـ اسمى (سارة) يا عم (حسين)..

كان للجنيهات العشرة فعل السحر فانقلبت أسارير الحارس سعيدة منبسطة وهو يهتف:

ـ أنَرتي البيت يا (سارة) يا ابنتى..

أهدته (سارة) ابتسامتها الغامضة الموحدة.. هذه المرة بالطبع كانت تعني السخرية.. فعشرة جنيهات فقط أخرجتها من جهنم وجعلتها نوراً للبيت.. رخيصة هي أسعار هذه الأيام..

ولكنها الليلة شبه سعيدة..

وترغب للجميع أن يكونوا سعداء..

أو يكادوا..

* * *

(٧)

.....

.....

اليوم أعلنت نفسي ملكاً...

أضع التاج على رأسي... مختاراً ألا أفهم..

لم يعد لدي من العقل ما يكفيني....

لأتخذ قراراً آخر...

تصدمني نظراتكم...

تنكرون منطقي.. أنا أيضا أرفض منطقكم..

يجعلنا هذا متعادلين....

بيد أني مازلت عليكم ملكاً...

يقولون في الأساطير القديمة... تحكي الحواديت..

وحكايا ما قبل النوم لهدهدة الأطفال..

أحب فلان فلانة جداً.....

حارب التنين واجتاز الغابة والأعاصير...

إنه تسلّق الجبال ليحضر مهر الحبيبة..

وهكذا تزوجا وعاشا في سعادة أبدية..

هذا منطق الأساطير... والحواديت..

وحكايا ما قبل النوم..

وهكذا أيضا نصّبت نفسي ملكاً!!! .....

.....

نظر (مراد) للسطور التي كتبها الآن في روايته...

ربما عليه أن يستفيد بتجربته المرّة على نحو ما.. كما أنه شاكر لأصدقائه القدامى الذين عاونوه ليجد وظيفة مؤقتة في جريدة حديثة.. على شكل مقال أسبوعي لفترة ما، فإن توافق ما يكتبه مع رؤية الجريدة ورد فعل القراء فسيسمحون له بعمود يومي.. قام من على مكتبه وأوراقه وبدأ يتجوّل في الشقة التي مازال يشعر بغربته عنها..

كانت (إيناس) قد أحضرت الزهور اليومية وبدأت في مهمتها المقدسة في توزيع الزهور الأربع والعشرين.. كل يوم يختلف التوزيع.. بل وتتغير أنواع الزهور.. الثابت هو العدد.. عدد ساعات اليوم.. المتغير هو النوع والتوزيع.. زهور اليوم يغلب عليها اللون الزهرى والأبيض.. إذن فإن (إيناس) سعيدة...

استأنف (مراد) تأمله لأمه.. وهي تستخدم بخاخاً صغيراً لرش ذرات الماء على بتلات زهورها لتضفي عليها نضارة ورونقاً..

مشغل الاقراص المدمجة تنبعث منه أصوات موسيقى وغناء.. لا يميّز المطربة ولكن اللغة هي الفرنسية التي يجيدها.. يبدو الصوت رخيماً محملاً بالمشاعر والأحاسيس..

دعته (إيناس) للذهاب معها إلى النادي ولكنه اعتذر منها في رقة.. فطلبت أن يكون مستعداً لاصطحابها لملجأ ايتام قريب حوالي الساعة الواحدة والنصف وهي ترغب له أن يشاركها..

لم يتمكن (مراد) من الاعتراض هذه المرة.. ووعدها أنه سيكون جاهزاً.. متسائلاً من أين تأتى هذه الستينية بكل هذا النشاط؟!

(مراد) لم يتصور أن تمر الساعات القليلة قبل الواحدة والنصف رتيبة مملة على هذا النحو.. تصفّح بريده الإليكترونى.. لم يجد في الـ «فيسبوك» ما يستحق القراءة أو التعليق.. فتح التليفزيون.. كان مملاً إلى حد الغثيان.. حاول استئناف الكتابة لكن مقومات اللغة عصته وصارت عجينة هلامية لا تتجمّع حروفها ولا تتشكل.. فأمست لا تُكّون كلمات ولا جُملاً..

أخذ دشاً جديداً محاولاً أن يصفي ذهنه ولكن هذا لم يستغرق سوى عدة دقائق..

جهز لنفسه فنجان قهوة.. وجد طعمه ماسخاً فرماه.. فسخّن مياهاً لعمل شاي.. وعندما رشف الرشفة الأولى وجده ساخناً للغاية فحرق طرف لسانه.. هكذا ترك (مراد) كوبه لعّله يبرد.. وربما ينساه فلا يشربه..

(ليندا).... (ليندا)..

لماذا يا (ليندا)..

نفض رأسه في عنف.. لقد قرر أن ينساها أو على الأقل يتناساها فلا مكان لها في حياته الآن..

كلّم صديقين قديمين على الهاتف المحمول فوجدهما في أشغالهما واعتذرا منه لعدم قدرتهما على التحدث الآن..

ماذا يفعل؟!

لا يعرف..

نظر للساعة فوجدها اقتربت من الواحدة.. فتهللّت أساريره.. بدأ يرتدي ملابسه منتظراً الواحدة والنصف في فروغ صبر.. وما إن تناهى لأسماعه صوت المفتاح يدور في كالون الباب حتى كان أمامه مستقبلاً والدته في ترحاب.. قائلاً:

ـ هيا بنا...أنا جاهز..

قهقهت والدته في حنوّ وأعطته مجموعة الأكياس التي كانت تحملها والمملوءة بملابس وأحذية وخلافه من مشاركات أعضاء النادي الكرماء..

نظر (مراد) لوالدته في هيام مدركاً أن سيادة السفير لم يكن أمامه حل آخر سوى الوقوع في هواها حتى الثمالة..

وهكذا وجد (مراد) نفسه مشاركاً لأمه أحداث يومها المزدحم بلا امتعاض ولا اعتراض.. ولم يصدّق أن باستطاعته القيام بكل هذه الأشياء خلال اليوم الواحد..

وعندما عادا للمنزل في المساء..

وجد أمه تقترب منه في خجل مستأذنة إياه..

ـ (مراد) حبيبى.. الليلة هي ليلة الثلاثاء..

ـ نعم.. فعلاً.. الليلة ليلة الثلاثاء..

تنحنحت الأم قليلاً مطرقة أرضاً وهي تقول:

- إنها الليلة التي تزورني فيها بعض من صديقاتي لنلعب «البريدچ»..
- «بريدچ»؟!!
- نعم يا حبيبى.. «بريدچ»..

ضحك (مراد) كثيراً.. مدركاً أن ثمّة كثير في هذه الحياة يفتقده.. وأن هذه السيدة ربما تساعده على التعلم يوماً ما.. يرغب هو في أن يحب الحياة بنفس هذا القدر وبنفس هذه القوة.. هو فقط لا يعرف.. يرغب.. ولكنه يجهل.. ولكنه أيضاً سيتعلم..

ربما...

* * *

(٨)

أول كل شيئ... أصعبه...

هكذا أحست (سارة) عندما تلصصت من خلف الكواليس لتجد أن الساحة المربّعة لمسرح عرضهم الأول ممتلئة حتى آخرها.. تساءلت كيف يثق كل هؤلاء بفرقة تقدم حفلاً أوّل؟! أهي الرغبة الملحة في تجربة الجديد.. أم أن إرهاصات زملائها السابقة كانت كافية لعمل الدعاية اللازمة لحشد هذا العدد؟!

ضبطت نفسها ترتجف في شدة وهي التي كانت تظن نفسها قوية ثابتة.. ماذا لو احتبس صوتها ولم تتمكن من الغناء؟!

ماذا لو نسيت الكلمات؟! الألحان؟!

ازداد ارتجافها وامتقعت حتى صارت بيضاء كبياض الثلج.. اغتصبت ضحكة مقتضبة لدى خاطر بياض الثلج إذ ربطت نفسها بالأقزام السبعة... ترى أيكونون أعضاء الفرقة؟! شجعتها طرافة الخاطر قليلاً.. حتى حطت يد ثابتة على كتفها.. نظرت للوراء لتجد (جاسر) عازف «الدرامز» الرئيسى

يشجعها ويطمئنها.. خلفه وجدت (رمزي) عازف الجيتار.. ثم (أمين) عازف «الكيبورد».. فباقي أعضاء الفريق.. همس (جاسر):

ـ شدى حيلك يا (سارة)..

تشد حيلها؟! وهل كانت تفعل غير ذلك طوال حياتها السابقة؟!

يقولون إن ما تخاف منه.. لا يأتي أفضل منه..

وهكذا كان أداء (سارة) هذه الليلة.. كانت نجمة متألقة.. كانت تغني لنفسها.. يأتي اللحن من داخلها هي.. وتقوم أعضاء جسدها بالعزف.. ثم يأتي صوتها صافياً صادحاً رائقاً بلا تكلف أوتزّيد.. بلا مجهود.. صوت يخترق ذاتك... فتشعر بالكلمات داخل روحك... لا تسمعها بأذنيك.. بل بجوارحك.. وعندما فرغت وفتحت عينيها وجدت الحضور يضجّون بالتصفيق الحار.. بضع فتيات تمسحن دموعاً خائنة أفلتت منهن.. حتى زملاؤها.. انطلقت صيحاتهم وهتافهم لها.. وللحضور... طالبين منهم تصفيقًا أكثر للمبدعة الرائعة (سارة)..

هكذا تحولت (سارة) مع الوقت إلى أيقونة الفرقة ومركزها الذي يدورون في فلكه.. هكذا أيضا وجدت (سارة) نفسها موضوع صراع محموم يدور في الخفاء بين (جاسر) و(رمزي) و(أمين).. كل يُمَنِّي نفسه بالفوز بها وبقلبها...

يُسمعها (جاسر) معسول الكلام ويحاول أن يكون رقيقاً حساساً.. أما (رمزي) فيعرض دوماً توصيلها بسيارته الخاصة ومساعدتها في قضاء مشاويرها والتواجد دوماً أنّى شاءت.. أما (أمين) فيجاهد لكي يبدو في صورة الشاب الهادئ الواثق من نفسه رغم محاولاته العديدة للفت نظرها والإساءة لزميليه..

بمرور الوقت ازدادت حدة الصراعات وتعددت المواقف التي أصابتها

بالحرج أو نتج عنها سوء تفاهم.. ورغم أنها تعمدت معاملة الجميع بنفس الطريقة ووضع نفس المسافة بينها وبين كل واحد منهم.. إلا أن النفس البشرية قادرة على نسج ما تشاء من مفاهيم واختلاق ما ترغبه من افتراءات.. بل ويمتد الأمر بها لاتخاذ المواقف حسب ما نسجت واختلقت!!

بهذه الطريقة وجدت (سارة) أن أفضل الطرق هي الصمت..

وكفّت عن قضاء الوقت معهم.. واكتفت بالحضور في موعد البروفات بالضبط والانصراف فور الانتهاء مع عدم الرد على تليفوناتهم ولا رسائلهم... عدم الاستجابة للطافات (جاسر) ولا خدمات (رمزي) مع تجاهل محاولات (أمين) للفت الانتباه...

هم أيضاً مع الوقت استشعروا أن ثمة شيئاً غريبا بخصوص هذه الفتاة.. وأنها ليست كأي فتاة عرفوها من قبل.. احترموا انطواءها واكتفوا باقتسام النجاح معها.. فهم لا ينكرون أن الجمهور الآن ما عاد يأتي إلا للاستماع والاستمتاع بغناء (سارة) الرائع..

هكذا أيضا وجدت (سارة) نفسها مطلوبة للغناء مرّة أسبوعياً في عدة أماكن راقية.. وكان لقدرتها على الغناء بأكثر من لغة الفضل الكبير لهذا التهافت.. وخضوعاً لمسألة العرض والطلب.. بدأت (سارة) تختار ما يناسبها من عروض وترفض أخرى.. كما أن سعرها الآن آخذ في الارتفاع باضطراد..

تعلمت (سارة) أنه اذا كان الموج مواتياً.. فعليها الركوب.. وهي الآن على قمة موجة صاعدة.. انعكس تحسن دخلها المادي على نوعية ملابسها.. اكسسوارتها.. حتى أنواع العطور ومواد التجميل التي صارت تشتريها... (سارة) جديدة بدأت في التكون والتطور.. (سارة) ناضجة مستقرة.. (سارة) أكثر رزانة وحكمة.. يغلّفها حزن نبيل وتعتريها مسحة من غموض أخاذ..

كان معجبوها في تزايد وإحساسها بهم في تناقص.. أمن المعقول أن بعضاً من غرور تسرب إليها؟!

أخبرهم (جاسر) أنهم مطلوبون لعمل حفلتين موسيقيتين في (دبي) على هامش مهرجان التسوق.. طلبت (سارة) مهلة للتفكير.. نظر (رمزي) لـ(أمين) في استغراب.. ومصمص بعض من باقي الفرقة شفاههم.. فقد وجدها الجميع فرصة سانحة وربحاً مادياً جيداً ولم يدر بخلدهم أنه أمر يحتاج من أى منهم مهلة للتفكير..

قال (أمين):

ـ أجل يا شباب.. لا تنسوا أنها فتاة.. يجب أن تستأذن أهلها أولاً..

أهلها؟!.. كان وقع الكلمة غريباً على أذن (سارة) وكادت تند منها كلمة استنكار.. أو إنكار لوجود أهل لها.. إلا أنها لا تنكر سعادة أيضاً، بعضاً من سعادة.. فأن يظن الناس أن لك أهلاً يحمونك كفيل بوضع الحدود في تعاملاتهم معك.. مرّة أخرى أدركت (سارة) متعة أن تتعرف على أناس جدد.. فهذا يعطيك أفضلية أن تنسج عن نفسك ما تشاء.وهكذا قررت أن تؤمن على كلام (أمين) وتشكره.. وهكذا وجدوا جميعاً ألّا غضاضة في طلبها مهلة للتفكير...

إن (سارة) الآن ولابد على قمة العالم.. الكون كلّه يأتمر لخدمتها وسعادتها.. راودها خاطر شرير أن تتصل بهم بعد عودتها للمنزل وتدعي رفض أهلها لهذه الرحلة.. ولكن هذا شرير أكثر مما يجب... فهي تعرف أنها مطربة الفرقة الرئيسية ولا يسعها أن تعتذر.. ستخذلهم جميعاً بعد أن ساندوها وكانوا لها نعم الإخوة والأصدقاء.. أنّبت نفسها ثانية.. وقررت أنها ستوافق.. ولكن يجب عليـها مسايرة الحدث الآن والاكتفاء بما دار من حوار...

وبعد دش المساء الساخن وتناولها لشطيرة باردة تركتها منذ الصباح..

بعثت رسالة على الهاتف المحمول الخاص بـ(جاسر) معلنة الموافقة.. لم تتصل.. اكتفت برسالة تليفونية.. فهي لا ترغب في فتح أبواب أوصدتها مسبقاً.. وقررت أن تبقى موصدة.. الآن بدأت تفكر في دبي.. وفوائد السفر التي طالما سمعت بها..

جميلة هي الحياة..... عندما تبتسم

* * *

(٩)

يفوز بعض الرجال بصمتهم أكثر مما ينطقون...

يبدو أن هذا هو ما ميّز (مراد) عن أقرانه.. وهو ما لفت نظر (رضوى) سكرتيرة التحرير الحسناء.. التي يبدو أنها تنتظر حضور (مراد) القليل للجريدة محاولة أن تتجاذب معه أطراف الحديث.. تختلق المواقف من أجل أن تسمع منه جملة أو اثنتين.. الصمت يمنح المرء غموضاً وهيبة.. كأنه يفكر أو كأن ما يمكن أن يقوله أقيم من أن يقال.. يبدو الرجل الصامت أكثر إغراءً للأنثى فهو يوحي بالخبرة والثقة بالنفس.. الرجل الغامض المثير دائماً ما يكون صموتاً..

بدأت مقالات (مراد) الأسبوعية تلقى استحساناً مما مهّد لتخصيص عمود يومي له... وكانت (رضوى) ترغب في معرفة قصة هذا الرجل بالذات.. تتحرق شوقاً لكشف أى سر يختفي بين طيات عوالمه..

هي لم تكن تعلم أن هذا الصمت يخفي خلفه حزناً عميقاً وأن هذا الصمت هو نوع من أنواع عدم التصديق.. فـ (مراد) مازال في هذه المرحلة.. لا يصدق أن هذا قد حدث له بالذات.. وغير مستوعب لأى منطق خلفه.. بل إنه في

بعض الأحيان لا يؤمن أنه حدث..

جاءت مقالات (مراد) كلها مغلّفة بالألم والحزن والاشتياق فكثر قراؤه ومريدوه.. ووجد (مراد) في كتاباته منفذاً لما يعتمل داخله من أحاسيس مضطرمة.. كما أن العيش مع (إيناس) أكسبه مهارات جديدة في فن الحياة.

كان قد استلم شيكه الأسبوعي لتوّه وعلى وشك المغادرة.. عندما وضعت (رضوى) نفسها حائلاً بينه وبين المصعد.. رفع (مراد) عينه عن الأرض حيث اعتاد أن ينظر.. لا يلفت نظره سوى وجه الشبه بين (رضوى) و(ليندا).. حقيقة هما لا تشبهان بعضهما إلى هذا الحد.. لكن (مراد) تصّور هذا.. جاوبها بصمته المعتاد.. فتلعثمت ظناً منها أن هذه الحركة فيها كلام بما يكفي.. هي لم تعتد على هذا التصرف الطائش قبلاً ولم تظن أن بمقدورها أن تفعل.. إلا أن (رضوى) الأنثى لم تكن مستعدة للاستسلام بعد.. فابتلعت اندهاشها وبادرت بالكلام:

ـ أستاذ (مراد).. أنا (رضوى).. تعجبني مقالاتك جداً.. بها مزيج عجيب من.. من..

بقلة ذوق قاطعها:

ـ أشكرك.. ولكني في عجلة من أمري.

هكذا قررت (رضوى) أن تتنحى جانباً مفسحة له الطريق ليدخل المصعد الذي كان قد وصل وانفتح بابه في تواطؤٍ مفضوح.. مكملة جملتها المبتورة مع انغلاق دلفتي باب المصعد

ـ حزن..... وغموض.

ضربت بقبضة يدها على باب المصعد المغلق وقد أحرقها أن يتجاهلها (مراد) على هذا النحو الفج الخالي من الذوق والكياسة.. لكنها برّرت لنفسها

الأمر أنه ربما كان في عجلة من أمره كما أدّعى.. لقد خسرت هذه الفرصة.. ولكنها لم تستسلم بعد.

اتصل بـ(إيناس) يخبرها أنه في طريق العودة للمنزل.. ففاجأه سعالها الشديد عبر الهاتف... في قلق سألها عما بها.. فأخبرته أنه دور خفيف وسيزول سريعاً.. فقد شربت مشروبها السحرى المكون من مزيج من مسحوق الزنجبيل وعسل النحل والليمون.. وأنه لا توجد كحة على وجه الأرض يمكنها مقاومة هذا الترياق.

إلا أن الأمر استمر عدة أيام فأصر أن يصحبها لطبيب متخصص.. بالطبع رفضت الأمرفي بدايته.. كما أنها لم ترغب في أن تخبره أن هذه النوبات صارت تصيبها مؤخراً بشكل متكرر.. وعندما وافقت (إيناس) على زيارة الطبيب لم يكن ذلك نابعاً من شعورها بالقلق على نفسها.. ولكن استجابة لقلق ولدها ورجاءاته.

أمر الطبيب بأشعة على الصدر، وقف أمامها محملقاً.. ليأمر بأشعة مقطعية.

كانت الأمور تتطور في سرعة أكثر من مقدور (مراد) على المتابعة وهو مازال في فترة نقاهته.. وعندما استكملت (إيناس) فحوصها وتحاليلها، انتحى به الطبيب جانباً واضعاً يده على كتفه كأنه يواسيه.

- أستاذ (مراد).. للأسف مدام (إيناس) لديها أورام ثانوية بالرئتين.. وهذا يعني أن المرض منتشر في جسدها.. أنصحك باستشارة متخصص في علاج الأورام.

بالطبع لم يتمكن (مراد) من أن يخبر والدته أي شيئ.. بل كذب عليها مطمئناً إياها.. وكان لتحسن سعالها المؤقت على علاج إخصائي الأمراض الصدرية أكبر الأثر لتصدق ادعاءه.. إلا أنه لم يتوقف.. أخذ كل الأوراق وذهب لطبيب الأورام.. الذي أخبره عن احتياج والدته لتناول العلاج

الكيميائى.. لأن التدخل الجراحي صار غير ذي جدوى الآن.

كان الأمر أكثر مما تتحمل أعصابه.. فخر منهاراً يبكي.. هو غير مدرك لِكُنْهِ ما يحدث له هو بالذات.. فلماذا يموت والده وهو صغير ثم تخونه زوجته في فراشه وأخيراً تصاب والدته وأرق كائن في هذا الوجود بالمرض الخبيث؟!!

هل هناك حكمة ما وهو جاهل بها؟! هل هكذا يكون نصيب المرء في الدنيا؟!

تضاعف الحزن والألم لديه أضعافاً.

أمسك ورقة وقلماً.. وبدأ يكتب..

((.....

بالأمس..... قررت أن آخذ بندقيتي..

لأقتل أي شخص حزين أقابله..

لا أعرف بالضبط كم شخصاً قتلت..

ولكني عندما أحصيت كم المرايا التي حطمت..

وجدتنى قتلت مائة شخص..

كلهم كانوا أنا...

ولكني مازلت حياً....

تبقى لدي رصاصة واحدة.....

ولكن كل المرايا تحطمت....

تساءلت أأقتل الحزن الذي بداخلي

باسم الحياة.. أم أقتل رغبتي في الحياة

باسم الحزن؟!

الأمر لا يهم..

فالرصاصة واحدة...

والقتيل والقاتل واحد....

والميت في النهايه دوماً.. أنا.....

.....

.....))

* * *

(١٠)

لا يمكن للمرء أن يمنح فرصاً ثانية لآخرين إلا بعد أن يمنحها لنفسه أولاً...

تدرك (سارة) الآن أنها تحيا جزء حياتها الرابع..

بالطبع لا يعلم المرء عدد الأجزاء الخاصة بحياته.. ولا متى ينتهي جزء ويبدأ آخر.. جزء حياتها الأول كان سعيداً هانئاً.. طفلة منعمة تتمتع بكل شيئ.. والجزء الثانى طفلة ومراهقة تعيش أسوأ ما تتخيل مع زوج أم مجرم.. وجزء ثالث كقطة شارع شاردة تتطاردها كلاب الطريق بغية نهشها.. حتى تصل إلى هذا الجزء الرائع.. الجزء الرابع.. تكاد تشعر أنها في دولة أوروبية تنطق باللغة العربية.. وجوه مرحبة ورفاهية لم تجربها من قبل.

يمتد الأفق أمامها راسماً أشكالاً هندسية شاهقة ومسطحات زرقاء وخضراء مريحة للعيون.. ارتشفت قليلاً من عصير الفواكه الطازجة وأغمضت عينيها لتعاودها خيالات الشاطئ والحصان الجامح الأسود ذي المعرفة البيضاء.. تضع سماعات الـ «إم بي ثري» مرة أخرى لتتفرغ لنفسها.

كانت حفلة الأمس ناجحة جداً.. وستكون الحفلة الثانية غداً.. أخبرها (جاسر) أن المنظم يرغب لهم أن يقدموا حفلتين أخرتين في (أبي ظبي).. وأخريين في (الدوحة).. فأخبرهم (جاسر) موافقتهم المبدئية انتظاراً لتحديد المواعيد فيما بعد.

لفت نظرها على الطاولة التي أمامها جرائد مصرية.. وبالرغم من أنها لم تفكر يوماً في شراء الجريدة، إلا أنها ـ وبدافع الفضول ـ مدت يدها تتصفح أخبار الوطن.. ترتشف من عصيرها اللذيذ ما بين صفحة وأخرى.. حتى توقفت فجأة عن الرشف والتقليب.

خبر مقتضب بصفحة الحوادث.. «اليوم النطق بالحكم في قضية قاتلة زوجها بالاسكندرية».. تحت الخبر صورة الزوجة القاتلة وبجوارها الزوج القتيل وشريط أسود على العيون.. صورة مشوهة.. في خبر مقتضب.. في جريدة غير مقروءة وشريط أسود يخفي معالم الوجه.

كل ذلك لم يمنع (سارة) أبداً من أن تميّز ملامح أمها.. وزوج أمها.. اختلطت لديها المشاعر.. حزن وفرح.. حسرة يشوبها ارتياح.. حقيقة هي لا تدرك التصرف أو الانفعال المناسب.. جاءها (أمين) متوددا.. ارتبكت وتلعثمت.. كورت الجريدة وخبأتها في سرعة.. رغم أنه لا لزوم لفعل ذلك.. إلا أن (سارة) الآن خارج حصنها.. بعيدة عن قلعتها التي بنتها حول نفسها.. كانت (سارة) بلا أمان.. فجاء رد فعلها عفوياً لحظياً.. لم يفت رد الفعل هذا على (أمين) الذي حاول أن يبدو مهتماً فسألها عن أحوالها.. فشكرته.. ألح في سؤاله.. فأخبرته أنها بخير... زاد في إلحاحه فبدأت (سارة) تتوتر واستأذنته مغادرة.. قلب (أمين) شفتيه في استغراب مدركاً أنه لا أمل له في الوصول لهذه الفتاة غير المروضة.

قابلت (رمزي) في طريقها للمصعد.. فاستأنف سؤالها.. فتأففت بصوت

مسموع.. كان (جاسر) الآن يلج من باب الفندق.. و(أمين) يعود من الشرفة المطلة على الخليج الرائع ليروا جميعاً (سارة) وهي تدفع (رمزي) بعيداً عنها هاتفة:

ـ اتركوني.. أرجوكم دعوني وشأني.. اتركوني.

وعندما أصبحت (سارة) وحدها بالمصعد قابضة على الجريدة المكوّرة في يدها في طريقها لغرفتها الخاصة.. أحست أن انفعالها كان مبالغاً به وأنه لم يكن ثمة مبرر لهذا التصرف.

كالعادة، رسالتين على المحمول.. تعتذر فيهما من (رمزي) و(أمين).

فردت الجريده المكرمشة واستأنفت القراءة.....

.....

اليوم النطق بالحكم في القضية المتهمة فيها (ن.م.م.) بقتل زوجها (ج.ر.ج) مستخدمة تمثالاً..... هذا وقد اعترفت المتهمة تفصيلياً و.....

و من المتوقع أن.....

.....

تُرى ما هو مصير حلمها بالاجتماع بوالدتها والعيش معاً في سعادة أبدية؟! يبدو الأمر كما لو كانت العودة إلى الوراء أو انتظار النهاية المرغوبة أموراً مستحيلة... الحياة مركب كيميائى معقد.. معطياتها ورغبات مشاهديها أمور لا دخل لها بالنتائج أو التطورات التي تأتي بالمستقبل.. يبدو أن استقلال (سارة) الكامل على وشك التحقق.. أتترك الماضي وراءها وتعيش الآن والغد وتستمتع بهما.. أم إنها يتوجب عليـها زيارة الأم الحبيسة والعودة مرّة أخرى بعد أن زالت المعوقات.. وتتحمل مع والدتها عواقب ما فعلت.. كان القرار صعباً جداً.. فحياتها الآن تبدو بسيطة جداً بلا تعقيدات.. جميلة جداً كلها

نجاحات.. مليئة بمستقبل مشرق وأحلام يمكن أن تتحقق.. أما العودة للأم المسجونة وايقاظ آلامها وذكرياتها والدخول في متاهات لا يعلمها إلا الله وحده.. ما هو المناسب؟! وما هو الواجب؟! وما هو الصحيح؟! أين الإجابات وبمن تستعين لاتخاذ القرار؟!

الآن فقط أدركت كم هي وحيدة.. بلا أصدقاء فعليين.. كانت قراراتها فيما سبق سهلة.. مريحة.. إذ يكفيها أن تفعل ما يعنّ لها.. تترك وظيفة لم ترتح لها.. تغادر منزلاً ضايقها مالكه.. تغلق أبواباً.. تفتح طرقاً.. تمارس حريتها وتتخذ قراراتها بتلقائية... بالإحساس.. بالفطرة.

أيعقل أن تكون هذه هي المرة الأولى التي تضطر فيها للتفكير؟؟ لأخذ المشورة؟؟ للاستعانة بآخرين؟؟

نظرت لأكياس الورق المقوى المتراصة فوق السرير و «الكومودينو» وبجوار باب الغرفة.. فساتين جديدة.. إكسسوارات.. عطور جديدة.. عطور أخرى.. للمرة الأولى تكتشف في نفسها هذا الشغف نحو العطور.. تذكرت الرواية المشهورة (العطر).. بشخصياتها النفسية المعقدة وهذه العلاقة المثيرة بين الرائحة وحاسة الشم والغريزة.. أتكون بعودتها للماضي قد وقعت صكاً بالاستغناء عن كل هذا؟! أم تتجاهل الأمر برمته وكأنه لم يحدث؟! كأنها لم تر الجريدة؟! كأنها لم تعرف أي شيئ؟!

اختارت زجاجة عطر جديدة.. رشت منها رشة في الهواء أمامها.. ثم خطت في مهل تاركة الذرات تعلق بجسدها.. رشت رشة أخرى.. ثم اخترقت سحابة العطر ثانية مستمتعة بتلك الدغدغة الخفيفة للذرات المتناثرة وهي تخترق شعيرات أنفها وتحطّ على مسام جسدها لتتحد والرائحة فيتكون مزيج جديد هو نتاج رائحة جسدها مع رائحة العطر الجديد.. يقولون إن رائحة الجسد تختلف حسب المزاج والحالة النفسية والفرح والحزن والقلق،

ترى هل وضع نفس العطر مع اختلاف الحال ينتج كل مرة عطراً جديداً؟!

ما هي رائحتها الآن؟ ربما يعني هذا أي قرار عليـها أن تتخذ، نظرت لنفسها في المرآة.. ترتدى بلوزة بلا أكمام مكتوب عليـها (فتاة جميلة).. أحقاً؟!

ترى ما هو الواجب على الفتاة الجميلة أن تفعله؟!

قررت أن أمها تستحق منها ولو زيارة أخيرة،

هكذا تفعل الفتاة الجميلة!!

* * *

(١١)

.....

.....

قلبى تأكله العثة...
جسدي يتحول إلى حفرية....
أنتمي إلى الزمن السحيق....
رمادي يتناثر بغير تناسق.....
وأنا أخطو جسور اليأس.....
إلى أرض البؤس.....
زمن القهر....
شغفي للألم يزداد....
وأنا أراقص سواد ليلي..
رقصة عُهر...
أيكتمل الأمر برمته لأنتج مسخي
أم يتزاوج غدي.. مع الأمس؟!

.....

لم يتمكن (مراد) من إكمال ما يكتبه فقد غالبته الدموع.. يبدو أن جسده لم يكن مؤهلاً لنمو الحزن داخله على هذا النحو وبهذه الكيفية.. يدرك أنه غير ناضج للحد الكافي.. فها هو يبكى ويولول وينتحب.. يتحجج ليغادر الشقة بأي سبب.. حتى يجد لنفسه المكان المناسب لاستئناف البكاء.. يراقب الروتين اليومى والجدول المزدحم لـ(إيناس) فيحس نحوها بالشفقة.. وتنتابه الهواجس السوداء.. أخبرها أكثر من مرة أن تريح نفسها.. ولا تتعرض لكل هذا المجهود غير المناسب لها.. فردت عليه أنه سيأتى يوم على كل منا ليرتاح إلى الأبد.. وأنها مادامت حيّة ولو للحظة واحدة أخرى فعليـها أن تستفيد منها أقصى استفادة..

تطعنه كلماتها كالرماح المدببة.. تطعنه ولا تقتله.. كم هذا بائس حقير أن تطعن كل هذه الطعنات فلا تموت!!

فكر في الكيفية المناسبة ليخبرها بما تمر به.. ولكن دوماً ينعقد لسانه ويتلعثم فيهرب من المواجهة.. حتى فوجئ بوالدته تقتحم عليه الغرفة مساءً.. في صوت ثابت واجهته:

- (مراد).. ما الأمر؟؟ حالك هذه الأيام لا تسر.. خير يا حبيبى.. هل تعانى من شيئ؟.. هل كل شيئ على ما يرام؟.. أنا (إيناس) أمك.. حبيبتك.. صديقتك.. يمكننى أن أساعدك.. أخبرنى أي شيئ.. ما بك يا حبيبي؟

كانت كلماتها تمزقه أكثر وأكثر.. المسكينة تظن أن المشكلة لديه... وربما هي محقة.. أطرق في الأرض خجلاً وأخبرها أن شيئاً ما ليس على ما يرام فيها هي.. فتساءلت وقد تهلل وجهها بعد أن أدركت أن الأمر لا يخصه هو.

- قلقتني يا حبيبي.. ظننت أن أمراً سيئاً لديك.. أما وأن الأمر يخصني فهذا يريحني كثيراً.. خير يا حبيبي.. ما الأمر؟؟

لا يجد ما يرد به.. لا يدرك كُنْهَ هذه الإنسانة.. استجمع كل ما لديه من شجاعة قائلاً:

ـ أمي.. أنت مريضة.. مريضة للغاية ويجب أن تستريحي قليلاً

قلبت شفتيها في لا مبالاة.. وحدّقت فيه بثبات:

ـ مريضة؟! ما الأمر يا (مراد).. أخبرني..

غالبته دموعه فبدأ يبكي وانهار على السرير وجسده يرتجف كعصفور بلله المطر.. اقتربت منه (إيناس) واحتضنته في قوة شجعته أن ينطق أخيراً صارخاً تعيساً وصوته يرتعد ويتناثر لعابه:

ـ أمي.. أنت مصابة بالسرطان.. سرطان.. هل تفهمين.. سرطان يا أمي.. آاااه... آاااه...

زادت من قوة احتضانها.. وردت في هدوء أذهله:

ـ أعرف

فتح عينيه مدهوشاً.. وقد ألجمه ردها.. غير مصدق.. فاستأنفت:

ـ أعرف يا (مراد) منذ فترة.. لكني لم أشأ أن أزعجك.. إنها إرادة الله.. وقد عشت حياة طويلة مستمتعة بكل لحظة فيها وحان وقت الرحيل.. إنها سنة الحياة يا حبيبي

أغمض عينيه قائلاً لنفسه إن هذا مجرد كابوس.. كابوس بائس حزين مؤلم حالك السواد.. الآن سيفتح عينيه ويجد أنه لم يحدث أي مما حدث ويحدث.. هذا تهريج رخيص.. فتح عينيه فوجد ابتسامة (إيناس) الواثقة تستقبله.. نظر حوله فوجد نفسه في غرفته.. على سريره.. آثار البكاء والمخاط السائل على وجهه وملابسه.. لم يتغير شيئ.. ويبدو من سياق كل شيئ.. أنه واقع

وحدث بالفعل.. إنه الآن حليفاً للألم.. وإنه صار خليلاً للحزن.. إن طريق الفقد والخسارة ممتد أمامه ولا خيار له سوى السير فيه.. ربما حتى النهاية.. إن أسوأ كوابيسه تتحقق وربما أسوأ.. الآن أدرك مغزى كلام أمه عن الراحة التي هي مصير كل الناس.. وإلى الأبد.. الآن يدرك معنى الأبد.. رفع بصره في تردد محاذراً أن تتلاقى عيناه بعيني والدته.. أفلتته (إيناس) من حيز حضنها.. وربتت عليه في حنوّ.. بادرته في هدوء:

- كل شيئ في هذه الدنيا إلى زوال يا (مراد).. حتى الألم.. الألم كائن حي.. مثلي ومثلك.. هو أيضاً يشيخ ويموت.. كما أنه ضعيف جداً.. وكذلك الحزن.. الإحساس بالحزن أمر طبيعي ويحدث لنا جميعاً.. ولكننا يجب ألا نحياه.

نظر لها في تساؤل.. هو يريد أن يعرف كيف السبيل؟!

- لا يوجد خسارة في هذه الدنيا تعادل خسارتي لوالدك.. ولكنه أبداً لن يموت.. لأنه معي على الدوام... أنت لا تفقد شخصاً إلا بإرادتك.. العمر قصير جداً يا (مراد).. ويجب أن نحياه.. لأن كل لحظة نحياها هي بمثابة معجزة إلهية.. لأن الكثيرين ما عادوا يتمتعون بها الآن.. أليس الإبصار نعمة؟ أليس السمع نعمة؟ أليست القدرة على الحركة نعمة؟ كذلك هي أعمارنا.. نعمة.. حافظ عليها يا حبيبي.. فالحياة غير معتادة على إعطاء الفرص الثانية.

جاء الدور على (مراد) الآن كي يتماسك.. كي يستعيد بعضاً من ثقة فقدها

- أمي.. يجب أن تخضعي للعلاج....

هزت (إيناس) رأسها رافضة:

- العلاج لن يطيل عمري يا (مراد).. العلاج سيؤذيني.. سيفقدني

قدرتي على الحياة كما أريد.

في إصرار ضغط على حروف كلماته ليبدو حاسماً

ـ ستخضعين للعلاج يا أمي.. أرجوك.. أتوسل إليك.

ران صمت مطبق.. وتحدثت العيون.. تحول الأمر إلى ما يشبه الصورة المثبتة.. (إيناس) تحاول أن تراوغ ابنها.. و(مراد) يحاول أن يبدو صارماً كفاية ليجعل أمه تستجيب.. أخيراً جداً نطقت (إيناس):

ـ لو لم يعجبني العلاج.. سأتوقف عن تناوله.

عاد الصمت ثانية.. ألف فكرة راودت (مراد).. كاد ينفعل على أمه في شدة.. إلا أنه قرر أن يلعب اللعبة وفقاً لقواعدها.. رد (مراد) في هدوء:

ـ سأحجز لك موعداً مع الطبيب.

هكذا جاء الصمت الأخير بمثابة الموافقة.. و(مراد) تصرعه التساؤلات...

* * *

(١٢)

يمكنك أن تنسى الماضي.. أو تتناساه.. لكنه أبداً لا يموت..

هكذا وجدت (سارة) نفسها توقع أوراق زيارة أمها وتقدم بطاقتها لدى الدخول.. حتى هذه اللحظة كانت (سارة) تفكر ماذا لو عادت عمّا برأسها وغادرت المكان.. تزدرد لعابها في صعوبة وتتأكد من وضع الغلالة السوداء على رأسها وحول وجهها بشكل يكاد يخفي معالمها كلية.. زيّنت الصورة بنظارة سوداء دائرية العدسات متقمصة دور نجمات الشاشة الفضية الشهيرات وهنّ يتخفّين عن أعين «الباباراتزى».. ومتقنة لدور النجمة المشهورة وهي تراجع سطور حوارها الذي ستتلوه عما قريب على مسامع أمها.. هي لم تتمرن على لقطات العودة والمغفرة واجترار الذكريات سعيدها ومؤلمها.. الموقف برمته عجيب غريب لا مبرر له.. فكرت أن ثمة اختيارات كانت أمام (نجوى)... كان من الممكن أن تطلب الطلاق.. تخلعه.. تهدده.. تهرب هي أيضاً.. هي لم تكن لديها الخيار.. فقد كانت صغيرة لا تصدقها أمها والخطر يبيت معها في نفس المنزل كل ليلة.. أليس ما آلت إليه أفضل كثيراً مما آل إليه الجميع؟! إن ما فعلته أمها كان خاطراً ملحاً بالنسبة لها...

بل إنها كثيراً تخيلت أن تقوم به بنفس التمثال.. كما لو كان مصير هذا التمثال هو أم رأس (جميل).. المختلف هذه المرة هي اليد التي تجرأت وحملته لهذا المحتوم.

كانت الأيدي الممتدة والتي تحاول لمسها من بين القضبان أشبه بكابوس حي.. السجينات كائنات فيلم رعب تحاول أن تقتنصها وتنهش جثتها.. أصواتهن الشبيهة بالعواء.. كلمات السباب التي تتناثر حولها.. لا تدرى حقاً لماذا يجب عليـها أن تمر خلال هذه الردهة حتى تصل لغرفة الزيارة.. الآن يراودها تساؤل جديد.. ما هو رد فعل أمها حيال هذه الزيارة؟! بل حيالها هي؟! أينفطر قلبها بمقابلة باردة من أم كان آخر عهدها بها أنها لا تصدقها؟! أم أن الروح الحّرة التي أدت بـ (نجوى) أن تقتل زوجها الوغد هي نفسها التي أعادتها سيرتها الأولى.. أُمًّا محبّة.. نادمة على ما فعلته بنفسها وبابنتها.

كل هذه التساؤلات لم تجد وقتاً ولا خيالاً يسمح لها بالاستطراد والتشعب.. إذ قاطعها كلها صوت دقات الحارس المصاحب لها هاتفاً:

- زيارة...

أفاقت على هذا الصوت القوى الرنان.. لتجد نفسها داخل الغرفة.. وجهاً لوجه أمام بقايا امرأة متكومة على نفسها.. بدأت (نجوى) ترتفع بنظرها في نفس اللحظة التي كان صرير الباب المعدني أثناء انغلاقه يصنع الموسيقى التصويرية لهذا الصعود والتلاقي بين عيون ظنت أنه لن يحدث مثل هذا اللقاء.

الجو ثقيل وبرودة غريبة تشعر بها (سارة) في هذا الجو الرطب الحار.. رعدة تعتري جسدها ورعشة تشمل أطرافها.. في تردد وبطء جدير بأفلام السينما الصامتة تبدأ (نجوى) ترسم شبح ابتسامة على شفتيها.. وما إن تلاقت الأعين

وتأكد لهما أن ما يحدث واقع يعيشانه.. حتى اندفعت (نجوى) نحو ابنتها الوحيدة في لهفة.. المدهش أيضاً أن (سارة) وجدت ذراعيها مفتوحتان على امتدادهما مستقبلة الأم في اشتياق وشغف.

اعتصرت كل منهما الأخرى.. وسالت دموعهما.. وعلا نشيجهما

(سارة) الجامدة الصامتة.. ذات الابتسامة الغامضة الموحدة تبكي بحرقة.. تبكي بكاءً حارًّا صادقاً لا مراء فيه ولا ادعاء.. تنهمر قبلات (نجوى) تغمرها في حنان افتقدته منذ زمن.

الآن تذكر مقولة (أمين) عن استئذانها لأهلها قبل السفر واستغرابها من وقع الكلمة على أذنها بعد أن عوّدت نفسها على انقراض هذه الكلمة من قاموس كلماتها.. أهلها!! أجل.. ها هي الآن تحس أعظم إحساس في العالم وهي في حضن أمها.. أهلها.. والدتها الحبيبة.

- أنا آسفة يا حبيبتي.. آسفة يا (سارة) على كل ما حدث...
- كم أوحشتني يا أمي.. اشتقت إليك كثيراً.
- سامحيني يا (سارة).. سامحيني... لقد أخطأت كثيرا وهأنذا أكفر عن أخطائي...
- (هوسسس).. كُفِّي يا أمي.. كُفِّي.. لا تعتذرى.. سامحيني أنا على الهروب.. لم أقصد أن أفعل هذا بك.. ولكنى كنت مضطرة.
- أعرف يا حبيبتي.. أعرف.. لقد تمزق فؤادي لدى انقطاع أخبارك التي كنت أتابعها من خلال أقاربنا.. لقد كنت محقة في كل شيء.. محقة يا (سارة) في كل ما قلته.. سامحيني يا ابنتي.. سامحيني..

غلفّهما الصمت.. وبدأت كل منهما تملي أعينها بالنظر إلى صاحبتها.. قطعته (سارة):

- ما هي أحوال القضية يا أمي؟ لقد أصبحت أكسب مالاً جيداً ويمكنني أن أوكل لك أفضل محام..
- لا أحتاج يا (سارة) وفري مالك... لدي محام جيد.. فقط لا تنسيني.. لا تتوقفي عن زيارتي كلما استطعت.. عديني يا حبيبتي.. عديني.

تقتلها هذه اللهفة في نبرات صوت أمها اليائس.. فلا تجد سوى الإيماء بالإيجاب رداً مناسباً.. قائلة:

- أعدك يا أمي.. أعدك.. أنت أيضاً عديني أن تكوني بخير حتى تخرجي لي سالمة.. عديني..

نظرت في الأرض مطرقة في غير أمل.. وقالت:

- سأحاول يا (سارة).. سأحاول...

مرة أخرى تدك الدقّات الصارمة باب الغرفة الموصودة ويأتيها الصوت الجهوري ذاته:

- انتهت الزيارة.....

كان الانفعال بلغ بكل منهما مبلغه وهدّهما البكاء والنشيج.. وبينما (سارة) تغادر أمها مانحة إياها قبلتين أخيرتين.. كانت الآن تدرك أن المرء لا يتنصل من أمه مهما حدث.. وأن بقاء (نجوى) على قيد الحياة مرتبط بابنتها.. (سارة) أيضا كانت تحتاج لهذه الزيارة لتثبت لنفسها أنها ليست وحدها في هذا الكون.. العودة للماضي ليست بالسوء الذي كانت تظنه.. ها هي الآن تغادر الماضي.. عائدة للحاضر والمستقبل.. هي أيضا لن تنسى وعدها للماضي بتكرار العودة كلما استطاعت...

يصنع الإنسان توازنات حياته حتى يتمكن من الاستمرار.. ودون توازنات فإن الكفة تميل بصورة جائرة.. هذا الميل يعوقنا عن الاستمرار.. إذ

أن السفينة تنقلب على أحد جانبيها.. التوازن يحتاج للربان الماهر.. فبحر الحياة عالي الموج.. ومهارة الربان تصقلها الأيام.. التي يبدو أنها صنعت (سارة) على نحو جيد.

ومتناسق....

* * *

(١٣)

.....

.....

يتسع جرحي يوماً بعد يوم..
يسوء ويطول ويتّعمق...
استخدمت دموعي حتى جفّت..
وجسدي صار كشجرة بلا ورق..
تساقطت كلها مرتعشة في بؤس..
وجهي تغضن وأصبح بلا ملامح..
لقد صرت نذير شؤم..
كأنني ألف وجه حزين..
يصرخ من شدة الألم..
عيوني أرق..
وروحي أرق..
وأيامي أرق...
غدٌ آخر حقير يصرعني كل يوم...
رغم أن أشلاء مخي...

مستجيبة لاتفاقها مع (مراد).. خضعت (إيناس) للعديد من الفحوص والتحاليل وأخذ العينات... كانت صبورة مبتسمة ملتزمة بدورها على أكمل وجه.. (مراد) هو الذي لم يتمكن في أن يتحكم بعد في بكائه.. فهو يضبط نفسه يبكي عندما يستيقظ من النوم صباحاً.. يحس بدموعه تنحدر على خديه وهو يقود السيارة.. يلفت نظره فني التحاليل في المعمل وهو يسلمه النتائج أن ثمة دموع لم يمسحها عن وجهه.. (مراد) لا يدرك من أين يأتي بكل هذه الدموع التي تبدو بلا نهاية... أخيراً جداً تمكن (مراد) من استكمال قائمة طلبات طبيب الأورام.. مرت أطول خمس دقائق في التاريخ على (مراد) وهو يراقب عيون الطبيب القلقة المتحركة ما بين الأوراق والأشعات ونتائج المسح والعينات.. بينما (إيناس) منهمكة في تأمل لوحة الرقص في المدينة لـ (رينوار) والتي تمثل امرأة شابة ترتدى فستاناً بلا أكمام من الساتان الأبيض المائل للبنفسجي وترتدى زوجاً من القفازات البيضاء حتى الكوع يراقصها شاب يرتدى «السموكن» ولا يظهر من وجهه سوى الجبهة محيطاً خصرها بذراعه في رقة متناهية.. ذكرتها اللوحة بمعرض حضرته في باريس أقيم في (القصر الكبير) لأعمال بيار أوجست رينوار.....

بالطبع ليس المعرض ما تذكره.. ولكن رفيقها الحبيب الذي أبهرها بقصة كل لوحة وتاريخها وعلّمها الكثير عما يسمى بالمدرسة الانطباعية.. تكاد الآن تشم رائحة باريس وهي تمشي معه بالشانزليزيه.... و...

ـ مدام (إيناس).. لديك اختيار من اثنين.. الأول هو المدرسة القديمة

وهي أن تخضعي لجلسات بالعلاج بالأشعة.. يعقبها العلاج الكيماوي المعتاد على شكل أقراص ومحلول..

كان هذا هو صوت الطبيب.. الذي قاطعه (مراد) في لهفة موفراً على نفسه وأمه تفاصيل أكثر...

- والثاني يا دكتور... ما هو الخيار الثاني؟

نظر له الطبيب في ضيق مكملاً:

- هناك أسلوب علاجي جديد بأن يتم حقن الشريان المغذي للأورام الثانوية مع أخذ العلاج الكيماوي على شكل أقراص فقط وميزته أنه لا يحتاج لدخول مستشفى.. و..

- أختار الثاني...

كان هذا هو صوت (إيناس) الذي ضايقها أن يقاطع الطبيب تأملاتها للوحة (رينوار) وذكرياتها مع زوجها الحبيب... هذا شيئ مقدس وقد تم تدنيسه.. إلا أن الطبيب استقبل رد (إيناس) في ترحاب فقد كان يرغب في أن ينهي الأمر سريعاً منذ البداية.. فختم كلامه قائلا:

- سنبدأ الأقراص من الآن.. وسأدلكم على صيدلية معينة بها كل الأدوية دون أن تضطروا للبحث عن أي شيئ في أماكن أخرى.. وسنبدأ جلسات الحقن الموضعي عن طريق الأشعة الأسبوع القادم..

قام من على كرسيه ماداً يده معلناً..

انتهاء الزيارة.....

مد (مراد) يده المرتعشة مسلماً.. بينما أعادت (إيناس) وضع الإيشارب الرقيق المزركش بالزهورعلى كتفها الأيسر معطية ظهرها للاثنين..

لقد أوفت بوعدها.. وهذا يكفي.. بالنسبة لها..

انتهت الزيارة....

وفي المنزل وبعد شراء كل العلاج.. وضعت (إيناس) الأقراص العديدة التي يجب عليها تناولها أمامها في حيرة.. نظرت لـ (مراد) متساءلة:

- هل تظن أنه بمقدوري تناول أربعة وعشرين قرصاً وكبسولة كل يوم؟! أنت تتعب نفسك يا (مراد).. كم تذكرنى بـ (دون كيشوت) أو (سيزيف).. أنت تصارع أقدارك يا حبيبي.. وصراعك بلا طائل أو فائدة.

- دعينى أحاول يا أمي.. على الأقل أحاول...

جاء رده مفاجئاً لها.. بل مخجلاً إلى حد ما.. فغمغمت في شبه استسلام:

- ستنال هذا الشرف.. وسألتزم بدوري حتى لا أتمكن من ذلك.. وستسامحني عندئذ.. أليس كذلك؟

- سأسامحك يا أمي.. وأشكرك على المحاولة أنت أيضاً.. يبدو هذا بالنسبة لي الأمل الوحيد.. أن نحاول.. أليس كذلك يا أمي؟!.... أليست المحاولة في حد ذاتها أملاً؟!

أومأت برأسها إيجاباً واحتضنته في قوة وقد بدأت تغالبها الدموع...

تركها (مراد) متسائلاً عن الكيفية التي سيتمكن بها من اقناع والدته بتناول كل هذه الأقراص والكبسولات..

جاء الصباح.. وللمرة الأولى تُفاجأ (إيناس) أن (مراد) قد استيقظ مبكراً عنها.. المفاجأة الأخرى كانت في باقة الزهور البيضاء التي كان (مراد) يخفيها خلف ظهره..

بادرها (مراد) قائلاً:

- من الآن فصاعداً سأكون أنا من يحضر زهورك كل يوم يا أمي.. أربع وعشرون زهرة.. وسأختار أنا النوع والألوان... سأعطيك زهرة مع كل قرص تتناولينه.. وسيكون بمقدورك أن تضعي الزهرة في المكان الذي تودينه.. أربع وعشرون ساعة.. أربع وعشرون زهرة... أربعة وعشرون قرصاً وكبسولة.. أنا لن أيأس يا أمي.. وستتناولين الدواء.. كله.. كله يا أمي... هل تفهمين؟!

يبدو أن دروس (إيناس) في فن الحياة لولدها الوحيد قد بدأت تؤتي ثمارها.. فها هو البائس الوحيد السوداوي يرى بُدّاً من الحياة بل ويتحايل من أجل أن تقوم (إيناس) بما ترفضه.. وتقاومه من داخلها.. هكذا مدت يدها لولدها.... فهمّ بإهدائها الزهرة الأولى.. إلا أن (إيناس) ردت الزهرة... طالبة القرص الأول.. ازدردته في صعوبة كأنها تبتلع سمّاً.. إلا أنه كان سماً تبتلعه بابتسامة...

اعقبتها زهرة بيضاء....

* * *

(١٤)

أنين النفس أحياناً... يعزف أعذب الألحان...

عاش (رمزي) وحيداً طوال عمره مشتتاً بين والدين منفصلين ربما لهذا السبب اختار الجيتار آلة يعزفها... الجيتار آلة المستوحدين لأن عازف الجيتار يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآلته فتصبح هي صديقته وحبيبته وأقرب شيئ إلى روحه.. يبثها آلامه ويداعبها في أفراحه.. يذكر أنه أيام المدرسة والكلية كان يذاكر كل شيئ عزفاً على الجيتار.. عندما يسمع فضيحة جديدة لوالده مع سكرتيرة أخرى.. يعزف على الجيتار.. عندما تعود أمه بعد عملية (ميك أوڤر) جديدة في لبنان.. يعزف على الجيتار.. ومع كل قصة حب فاشلة.. كان يحكي همومه عزفاً على الجيتار.. لدرجة أنه في بعض الليالي كان ينام محتضناً الجيتار كأنه يلتمس منه بعض الدفء والأمان.. لو كان الجيتار امرأة لتزوجها دون تردد...

هكذا وجد (رمزي) نفسه مدفوعاً في طريق أقداره ليصطدم بالواقع الذي يقول إن الجيتار ليس الآلة المناسبة لهذه الأرض وهذا الوطن.. إنه آلة غريبة وغير مطلوبة.. الكل يعشقها ويحبها.. ولكنها تظل سوقاً للهواية

وليس الاحتراف... الجيتار يحتاج العشاق والمحبين.. ولكنك أبداً لن تعرف اسم عازف الجيتار.. عازف الجيتار ليس قائداً للفريق.. أي فريق.. حتى لو كان فريقاً هو مَنْ كَوَّنَه.. بدليل أن (جاسر) قد اغتصب منه هذا الحق بمجرد التحاقه بهم.. يمكنك أن تكون وحدك شريطة أن تغني بمصاحبة الجيتار.. شريطة أن تلحّن.. تكتب كلماتك بنفسك.. تصير فرقة كاملة من شخص واحد.. هو أنت..

هكذا وجد (رمزي) أنه من الطبيعى جداً أن تدفعه الفتاة التي بدأ يشعر بقلبه يخفق نحوها بهذه الطريقة وأمام كل الناس...

فعازف الجيتار ليس بطلاً بالفطرة...

وهو.. عازف جيتار.....

* * *

حين بدأ (أمين) يعرض أشعاره الغنائية على صديق عمره (جاسر) والذي كان قد تقابل منذ فترة قصيرة بعازف جيتار رائع اسمه (رمزي).. لم يفكر أن هذه القصائد ستكون المفجّر الحقيقي لتكوين فرقتهم التي بدأوا يستكملونها بما يحتاجونه من عازفين انتظاراً للصوت المميّز الذي سيتمكن من أن يكون واجهة لهم.. فكّر (أمين) أن يكون غناؤهم جماعياً ككثير من الفرق.. خصوصاً غير المختلطة.. إلا أن (جاسر) كان مُصرّاً أن يكون الصوت الرئيسي نسائياً..

و هكذا انتقلوا من فشل إلى فشل... ومن يأس إلى احباط إلى ملل إلى اعتراف ضمني بالحكم الخاطئ على الأمر برّمته.. لذا فإنه عندما تركتهم المطربة الأخيرة ـ والتي لا يذكر اسمها على وجه التحديد الآن ـ لتعمل في مجال الإعلانات.. ليس تمثيلاً ولكن غناءً.. أي إنها ستكون المطربة التي تغني طوال الوقت متغزّلة في عُلب السمن ومساحيق الغسيل وعبوات اللبن الجديدة..

أدرك أن هذا المصير يناسبها تماماً.. ولكنه ما إن استمع لـ (سارة) حتى أحس أن شيئاً ما داخله تغيّر.. وأنه أبداً لن يعود كما كان.. أدّت أغنية فرنسية.. ربما كانت لـ(إديث بياف) أو (سيلين ديون) لا يذكر.. هو لا يتقن الفرنسية.. كذا (جاسر) و(رمزي).. ولكنه كان يعرف الأغنية جيداً ويعرف كلماتها.. وهكذا وجد (أمين) ضالته.. فصارت (سارة) وصوتها هما الإلهام الذي يبحث عنه.. فجاءت أشعاره بمثابة الرسائل الخفية.. وللمرة الأولى أحس بالحنق لأنه عازف «الكيبورد»...

فعازف «الكيبورد» متبلد الاحساس...

حتى ولو كان عازف «الكيبورد».... هو الشاعر....

* * *

تجاوز (جاسر) حادث وفاة صديقته الحميمة السابقة بجرعة مخدر زائدة سريعاً.. ولأنه كان قائداً طبيعياً لذا قرّر أنه لا وقت للعواطف الآن.. وأن عليه أن يكون ما يجب أن يكون عليه...

في هذا الوقت كان (جاسر) يجمع بين عزفه في بعض الملاهي الليلية على الدرامز مع عمله كـ (دى چي) شبه معروف.. موشك على أن يبدأ في الظهور داخل صالات أفراح الفنادق الكبرى بعد أن تمرّس كثيراً في أفراح أندية وأعياد الميلاد والحفلات الخاصة.. لذا فإنه تلقّف فكرة (رمزي) الرائعة وطوّرها بل وحوّلها إلى واقع.. بل وصار زعيماً وقائداً للفريق...

حتى قابل (سارة)..

هنالك أدرك (جاسر) أن ثمة شيئ ما خطأ.. فـ (سارة) من نوع الفتيات الرائع.. هذا النوع الخطير الذي يجعلك تحبه.. هو النوع الذي يؤثر فيك ويفقدك هدوءك ومميزاتك القيادية... هي نوع مختلف من الفتيات.. لا يذهب معك إلى السرير.. ولا يخجل من صدّك بل وإحراجك.. نوع لا يبحث عن

الزواج.. ولا عن الحب.. بل هي النوع الذي يبحث عن الحياة... وهو ما لا يعني أنها عملية مادية عادية مملة.. أو أنها انتهازية استغلالية بلا قلب أو عواطف... فغموضها فتنة.. وكلامها إغراء... ولغة جسدها فريدة في مفرادتها... عطورها الغريبة الرائعة التي لا تكاد تتكرر.. أكسسوارتها.. حتى طريقة وضعها للماكياج... ليست كالأخريات...

ربما أنك يا (جاسر) لم ترَ كل الأنواع والأصناف...

ربما أنك قاصر بعض الشيئ في النهاية....

ربما أنك الآن قد بدأت تحب (سارة) وتعلم أن صديقيك أيضاً يفعلان....

ربما أنك يا (جاسر) تجهل كيفية التعامل مع الأمر برّمته!!!

* * *

منذ قابلت (سارة) والدتها.. وإحساس غير مفهوم بعدم الارتياح لا يفارقها.. وللمرة الأولى تتذكر كوابيسها بعد الاستيقاظ ولا تفلح معها خطة الشاطئ والحصان المستعينة بسماعات الـ «إم بي ثري»... تدرك (سارة) أن ثمة شيئ ما سيئ سوف يحدث لها.. صارت شاردة أكثر.. تتأخر على البروفات.. تتشاجر مع صاحب المطعم الشهير الذي تغنى فيه أسبوعياً على أسباب تافهة بل وهددته بالرحيل ملوّحة أن المطعم يكتظ بالحضور في اليوم الذي تغنى فيه فقط وأن هؤلاء الزبائن يتهافتون على حجز طاولاتهم للاستمتاع بصوتها...

الجديد أيضا هي المحاولات التي صارت شبه جدية من زملاء فرقتها من أجل الاقتراب منها واقتحام الأجزاء التي تخفيها عامدة عن الجميع.. في رقة شديدة مست يد حانية كتفها الأيسر فجفلت.. وسرت في جسدها رعدة عابرة التفتت على إثرها جهة اليد الغازية.. كانت (عبير) رفيقة السكن الأقرب إلى قلبها.. في حنو سألتها:

- (سارة).. مالك؟! لقد اعتدت أن أراك غامضة لا تتكلمين ولكنك الآن واجمة وربما حزينة...

- حزينة؟!

حزن؟!!.. للمرة الأولى تتساءل أيكون الحزن فعلاً هو العامل الغريب الذي زاد عليـها واقتحم حياتها.. ولكن من أين جاء؟! ومن دعاه؟! أي حزن تحس به وهي في أكثر فترات حياتها نجاحاً واستقراراً... كما أنها قد عادت إلى حضن أمها.. آخر ما تبقى لها من أقارب في هذه الدنيا.. حتى لو كانت قضبان باردة حديدية تدس نفسها خلسة بينها وبين هذا الحلم المشروع.. نظرت لـ(عبير) نظرتها الخاوية من الانفعالات وابتسمت لها ابتسامتها التي تصلح أن تكون أى شيئ.. ثم لم تعقّب..

* * *

(١٥)

كأنها زهرة تذبل.....

هكذا كان (مراد) يراقب أمه وهي تجاهد الآثار الجانبية للعلاج الذي تتناوله.. فهو يختبئ خلف باب الحمام وهي تتقيأ.. فيحس هو أيضا بمعدته تتقلص ويكاد يتقيأ.. يقف بباب غرفة نومها ويراها جالسة أمام المرآة الكبيرة متحسسة الفراغات التي صارت واضحة للعيان في فروة رأسها.. يتابع أيضاً محاولاتها المضنية لإعادة توزيع خصلات الشعر لإخفاء هذه الفراغات.. كريم الأساس وبعض الحمرة التي بدأت في وضعهما للتغطية على شحوبها والهالات السوداء اللذين بدءا في الاضطراد.. يلاحظ التعبيرات المفاجئة على وجهها معانية ألماً عابراً مبرحاً.. فيكاد يحس ذات الألم في جسده.. صداع متكرر.. ضيق في التنفس.. مسكنات على شكل حقن أو لصقات توضع بين الكتفين.. اضطر (مراد) أن يشتري اسطوانة أكسيـچين متحركة صغيرة مثبتة على حامل صغير بعجلتين.. كانت تتناول منه القرص والزهرة.. ثم تتحرك دافعة اسطوانة الأكسيجين لتضع الزهرة اليانعة في المزهرية المجاورة لشباك غرفة المعيشة.. تأخذ منه كبسولة ثم زهرة أخرى تستقر على مزهرية طاولة الطعام..

قرص... زهرة... مزهرية مرآة الحمّام

كبسولة... زهرة... مزهرية غرفة (مراد)

ولكن (إيناس) لا تستريح.. تذهب للنادي.. تستقبل العم (صدقي) الرفّا الذي جاء يسلمها بنفسه مجموعة جديدة من الملابس التي تمكن بيده الذهبية من إعادتها كأنها لم تستعمل من قبل.. يأتيها أطفال درس البيانو.. فتجدها نشيطة تشع بالحياة والحيوية بينما أناملها الماهرة تنتقل في خفة بين أصابع البيانو العتيق.. تصبر على الأطفال وهم يخطئون.. بل وتهديهم الحلول.. وتمطرهم بالقبلات والتصفيق وكلمات الثناء.. تعود من درس اللغة الإسبانية وتقف أمام المرآة محاولة إتقان مخارج الألفاظ وكيفية النطق بشكل سليم.

في المساء عادا من جلسة الحقن الموضعي عن طريق الأشعة.. كانت (إيناس) كالعادة تحس ألماً مبرحاً.. فطلبت من (مراد) أن يحقنها بمسكن قوي.. وما إن غادرها حتى سمع صوتاً مدوياً لزجاج يتهشم.. في خطوتين كان (مراد) قد وصل غرفة نوم أمه ليجدها على الأرض وزجاج الكومود المجاور للسرير قد تحول إلى شظايا زجاجية على الأرض بجوار أمه.. يلاحظ أيضاً (مراد) أن ثمة جرح في يد والدته وأنها تنزف.

تحولت الصورة كلها إلى لون أسود ضبابي.. صار (مراد) لا يرى شيئا أمامه.. كان يسمع صوت (إيناس) تناديه من قلب جب سحيق وهو غير قادر على أن يتحرك..

- (مراد)... (مراد)...

و لكن (مراد) تحوّل إلى تمثال من شمع أصم أبكم أعمى.

تتسارع ضربات قلبه في شدة ويرتعش جسده ولكنه لا يتحرك.. لا يدرك حتى كم مر عليه وهو على هذا الوضع حتى فوجئ بيد تهزه في رفق.. وهنا

دوت منه صرخة عالية.. أعقبتها سلسلة من الصرخات التي لا يدرك كيف خرجت منه.

ـ مابك يا (مراد).. هون عليك يا حبيبي.... حصل خير... لا تقلق...

بدأ (مراد) في بطء يلتفت بنظرات ذاهلة ولعابه يسيل من ثغره المفتوح... جسده يرتج كمن أصابته الحمى... و(إيناس) المجروحة النازفة تحيط ابنها بذراعها السليمة محاولة أن تضمه إلى صدرها حيث الأمان.

كان (مراد) الآن يبكي وينهنه وقد دفن رأسه في حضن (إيناس).

ـ هون عليك يا (مراد).. أنا بخير.. لا تقلق.. أنا بخير

من بين بكائه بدأ ينتحب وهو يتشنج

ـ أنا!!.... خاااائف.... خائف جدا

ضمته (إيناس) في قوة.. وقد تناست يدها المجروحة والآلام والزجاج المكسور وبدأت تقبّل رأسه وتمرر أصابعها بين خشلات شعره.. ثم زفرت في حنوّ بجانب وجهه المحمر المبلول باللعاب:

ـ حبيبي.. لا تخف.. أمك هاهنا.. بجوارك.. لا تخف يا حبيبي

رفع وجهه بتلك النظرة الذاهلة والثغر شبه الفائر.. كان يرغب في البكاء أكثر.. في أن يستأنف الصراخ.. ولكن منظر الدم النازف من جرح أمه البسيط أعاده رويداً رويداً لأرض الواقع.. فقال فيما يشبه الرجاء:

ـ لا يمكنني العيش بدونك.. أنت آخر ما تبقى لي في الحياة.. لا حياة لي من بعدك.. أنا خائف.. ووحيد.. ومذعور.. وأعترف أن الأمر أكبر مني.. وأنني ضعيف جدا

ـ كلا يا (مراد).. كلا يا حبيبي.. أنت مخطئ تماماً.. بل أنت بطل..

لقد جئتني بآلامك وأحزانك لأزيد الثقل عليك.. ولولاك لما كنت حاولت أن آخذ علاجاً.. أنت فقط تحمل أكثر مما يجب.. ولكنك بطلي وابني وحبيبي وسبب حياتي

- حياتك؟؟! أنا؟! أنا لا أجد لنفسي أي فائدة.. أنا لا لزوم فعلي لحياتي.. أما أنت فأظن أنك مركز هذا الكون ومانحة الحياة لكل ما يحيط بك.

ضحكت في وقار.. واستأنفت ضم وتقبيل ابنها الحبيب.. الذي بدأ أخيراً في استجماع شتات نفسه.. واستأذن من والدته ليحضر لها بعض الضمادات.. وسألها إن كانت ترغب في شرب شيء ما فسيحضر لنفسه فنجاناً من القهوة السادة.

- كلا يا (مراد).. لا تشرب قهوة.. اتركني أجهز لك كوباً من العصير الطازج.. بل اثنين.. وسنجلس سوياً نشرب العصير.. الوقت غير مناسب للقهوة الآن.. أليس كذلك؟!

لم يكن (مراد) في وضعية تسمح له بالاعتراض على والدته الآن.. فخف مسرعاً ليضمد جرح أمه.. ثم جلس في غرفة المعيشة دافناً رأسه بين كفيه منتظر كوب العصير.

جاءت (إيناس) تحمل صينية صغيرة عليها كوبين كبيرين من العصير الطازج.. يتأمل (مراد) الكوبين.. يرى تلك الطبقات الملونة.. أحمر.. أصفر.. أخضر.. برتقالي.. ثم تلك المكعبات الثلجية اللامعة.. شريحة على حافة الكوب من الليمون الطازج.. الأمر كأنه في كازينو مشهور أو فندق فاخر من ذوات النجوم الخمسة.. أمسكت (إيناس) بالريموت الخاص بجهاز الـ «دي ڤي دي» والنغمات الموسيقية تتصاعد ملطفة الأجواء المتوترة.

بدأ (مراد) يرشف من العصير اللذيذ.. ثم أغمض عينيه مؤملاً أن ينتهي هذا الكابوس على خير..

فتح عينيه فلم يجد أمه.. ناداها.. فجاءته وألبوم صور قديم في يدها... جاورته في الجلوس وبدءا معًا في تأمل الصور المحملة بالذكريات وهي تحكي له قصة كل صورة.. ومكان وزمن التقاطها... لا يدرك (مراد) كم السعادة التي يجب أن يستشعرها الآن... ما بين حنوّ أمه ولذة العصير ومتعة الذكريات.

* * *

(١٦)

لقد كانت سجينة طوال عمرها.. كأن السجن قدر.. كأنه مصير..

طفلة نشأت مع أب صارم وأم خائفة وأخوة ترتعد فرائصهم إذا ما سكب أحدهم قطرة حليب على الأرض.. كانت حياتها أشبه بالسجن فلم يكن مسموحاً لها أن تعبّر عن نفسها.. أن تحلم.. أن تعترض.. لذا فإنها استجمعت كل مقاومتها وكل طاقة الرفض داخلها للإصرار على الزواج من (مجدي).. يطيب لها الاعتقاد أنها لاقت معارضة رهيبة وأن (مجدي) كان مرفوضاً بشدة.. وأن والدها هدد وندد وتشدّد.. واقع الأمر أن والدها قال متشفياً (اشربيه) هو كان يدرك أنه غير جيد... ولكنه تركها تواجه مصيرها.

وبالرغم من النعمة والترف الذين عاشت (نجوى) تحت لوائهما.. إلا أن إحساسها بالسجن زاد في اضطراد... فقد أدركت منذ الوهلة الأولى كل ممارسات زوجها الفاسدة وأنها بزواجها منه صارت شريكة له في كل شيئ... شراكة الساكت عن.... شراكة المستمتع المتنعم بخيرات الـ... كانت عصفورة حبيسة في قفص من ذهب.. أو كريستال براق.. تشتري ما تريد... وتفعل ما تريد.. وتذهب حيث تريد.. لذا فإنه مع انهيار كل شيئ.. كانت قد اعتادت على الأسر وصارت غير قادرة على مواجهة العالم الخارجى.

إلا أنها اختارت السجان الخطأ.. ربما هو السجان الوحيد الذي كان متاحاً لها.. لأن البديل كان أكثر مما تستطيع.. كانت مدركة لسكره وإدمانه للقمار.. بل وأنها كانت أيضا تعرف محاولاته الخسيسة مع ابنتها.. تلك الابنة التي لم تكن لها أماً يوماً ما... فلِمَ تبدأ الآن؟! هي حتى لم تتمكن من أن تكون حانية كما كانت أمها.. حتى وإن كانت تفوقت عليها في السلبية والجبن... ولكن أتجرؤ هي على مقارنة (جميل) أو حتى (مجدي) بوالدها؟!!

(سارة) ابنتها التي اغدق عليها (مجدي) حنان الأب والأم معاً فصارت بلا دور فعلي تؤديه لها.. حتى وعندما وصلت للمرحلة التي تكون فيها البنت أحوج ما تكون لأمها.. كانت هي سجينة خوفها... سجينة عدم قدرتها على الاعتراض.. السجين عادة ما يكون الشخص الذي اختار الاختيار الخطأ وهو حر الاختيار.... فمن أين له أن يختار اختياراً صائباً وهو مسجون؟!.. كانت سجينة عدم قدرتها على الحياة.. كانت تدعو ألا يحدث مكروه.. كالعادة انتظرت قدرة الله ليصرف لها الأمور كما يشاء.. هي قد جاءت هذه الحياة غير مدركة لدور محدد لها.. فاختارت طواعية أن تكون ريشة طائرة تسيرها الأنواء... تحط أينما تحط.. وتواجه ما لا دخل لها في مواجهته.

هكذا واجهت (نجوى) واقعة هروب (سارة) بذهول.. ربما لأن المراهقة الصغيرة ضربت لها المثل في كيفية تحكم البشر في مصائرهم.. وللمرة تلو المرة.. صارت (نجوى) سجينة الذكرى... ذكرى كل قصور تعاملت به مع موقف ما.. كل (نعم) قالتها مكان (لا).. وكل خرس أصابها وقت صراخ.. حتى جاءت زيارة (سارة) الأخيرة... تذكر (سارة) لها بعد كل هذا الوقت كان بمثابة عودة الروح لها... للمرة الثانية تعلّمها ابنتها الصغيرة ما يبدو أنها لم تتعلمه من الحياة.. كأن يداً أخرى هي التي ربتها وحولتها إلى ما هي عليه الآن.

بالطبع لم تتمكن (نجوى) من مصارحة ابنتها بعد كل هذا الغياب وكل ما فعلته بها أنه لا نقود لديها ولا محام... وأنها كعادتها تنتهج مع قضيتها سياسة الريشة الطائرة... فأوكلت لها المحكمة محامياً شاباً مرتبكاً ساذجاً حديث التخّرج مندهش على الدوام ومتلعثم عند الحديث وما يزيد الطين بلّة أنه كثير النسيان ومتأخر دوماً عن مواعيد المرافعات.. هكذا أدركت (نجوى) أن أقصى عقوبة في انتظارها.. وأنه ربما لا يتسنى لها رؤية العالم الخارجي ثانية... وللمرة الأولى يراودها خاطر الهروب... لقد فعلتها ابنتها مرة.. ولم يكن اختياراً سيئاً أبدا.. ولكن أكل الهروب سواء؟!

أن تهرب من شخص.. من بيت.. من زيجة.. كلّها أمور عادية تحدث كل يوم ولا غضاضة فيها إلا لمعاصريها... أما الهروب من السجن فهو مختلف كليةً.. فهنا تكون المخاطرة أكبر... والعقوبة أشد وأقسى..

«........ كانت أحلاماً يا قلبي

أن يسقط سجن مدينتنا

انقاضاً فوق السجان

أن أصبح فيك مدينتنا

انساناً.... مثل الإنسان.............. (*)»

تذكرت.. لقد كانت (سارة) تقول لها هذا الكلام من قصيدة ما.

(سارة).. كل شيئ (سارة).. كل شيئ منذ البدء (سارة).. ولكنه الآن تأكد جداً وصار (سارة) فعلا دون جدال.. كيف سمحت لنفسها أن تكون

(*) (فاروق جويدة.. وطنى لا يسمع أحزانى).

بشعة إلى هذا الحد؟ هي الآن تنتظر زيارتها القادمة وتفكر بالهروب وتحاسب نفسها على أخطاء حياتها واختياراتها.. هل يتوقف المرء يوماً عن التغير؟!.. عن التعلم؟! عن استئناف الحياة من أى نقطة توقف عندها؟!

جاءها صوت أجش شائه يأمرها

- انت... يا عاهرة.. يا بنت العاهرة.. تعالي دلّكي لي ظهري.. ظهري يؤلمني من عمل النهار... أسرعي وإلا كانت العواقب وخيمة.

ارتعدت في ذعر وقد جاءها صوت (رزقة) المجرمة العتيدة.. (رزقة) قاتلة الأطفال.. قائدة قطيع من أولاد الشوارع الذين يقترفون كل الجرائم الممكنة.. هذا غير نشاطاتها المعروفة والمتنوعة من تجارة مخدرات وتسهيل دعارة وبلطجة منظمة... وما خفي كان أعظم.

تسمرت (نجوى) من الخوف.. ولم تحرّك ساكناً.

كهزيم الرعد عاودت (رزقة) الصراخ:

- هل أنت صمّاء؟! هل أنت مجنونة؟! ألم آمرك بشيئ يا عاهرة... هيا أسرعي... ظهري يكاد يقتلني.

جاءت اللطمة على وجه (نجوى) لتفيق من شرودها.. بصوت مرتعد وشجاعة تجاهد للم شتاتها وأشلائها المبعثرة منذ زمن سحيق.

- هل هذا الكلام موجه لي؟!

صرخت فيها وقد بدأت ترول وتزبد:

- و هل من عاهرة غيرك في هذا المكان التعس؟ هل من عاهرة ابنة عاهرة غيرك؟؟

لا تدري كيف تمكنت من الصمود وهي ترد:

ـ لكنني لست كذلك.. فأنت مخطئة.. ابحثي لك عن واحدة غيري تكون كما تقولين.

نظرت بقية السجينات في العنبر نحو (نجوى) في اشفاق وقد أدركن أن نوبة الشجاعة المفاجئة تلك سيكون ثمنها فادح.. وأن الساذجة قد استمرت في الاختيارات الخاطئة التي لازمتها طوال حياتها.. وهكذا ببساطة شديدة اختارت أن تكون مواجهتها الأولى.. هي المواجهة الخطأ مع الشخص الخطأ.

هذه البساطة الشديدة نفسها.....

هي البساطة التي وقع بها آمر السجن أوراق تصريح دفن جثمان (نجوى).

الذي وجدوه في سريرها حين جاء الصباح.....

هذه البساطة الشديدة نفسها التي من الممكن أن تنتهي بها أى حياة.

* * *

(١٧)

يستيقظ (مراد) كل يوم مدركاً أنه ليس كالأمس.

ضربات قلبه المتسارعة تعوّد عليـها.. نوبات ضيق التنفس عزاها دوماً كرد الفعل لنوبات ضيق نفس أمه.. يمد يديه فيرى الرعشة تعتريهما.. حتى أن هاتفه كثيرا ما يقع منه حين يرن وهو ممسكٌ به... متعرق هو رغم برودة الجو... يعاف الطعام وإذا ما أصرت (إيناس) على أن يشاركها الأكل اختنق أثناء البلع.. تنميل غريب يشمل أطرافه فلا يكاد يشعر بها أحيانا حتى إنه كثيرا ما كان ينظر في اتجاه قدميه ليتأكد من وجودهما.

تمر عدّة أيام... فيجد (مراد) نفسه يعانى آلاماً بالصدر.. إحساس قاهر بالبرودة يسري في جسده رعدة شديدة... دوار متكرر.. أثناء الاستحمام... حينما يغسل وجهه.. حين يقف من وضعية السجود... كما أنه صار ينتفض كلما سمع صوت والدته يناديه بل ويحس كما لو أن الصوت يأتيه من جب عميق... أو من بين طيات غيب يجهله ويستدعيه ليغيبه هو الآخر بين طياته..

اتصلت به (رضوى) عدّة مرات فتجاهلها... جاءت رسالة منها «أستاذ (مراد).. أين أنت؟!.. رئيس التحرير غاضب جداً ويسأل عنك دوماً.. أنا أيضاً قلقة.. طمئني عليك.. أرجوك».

بيده المرتعدة يمسح الرسالة... يلاحظ على سطح الهاتف أن لديه ما يزيد على المائتي إشعار على الـ «فيسبوك» وثلاث وأربعين رسالة بريد إلكتروني بلا قراءة.. وما يزيد عن المائة تغريدة على «تويتر».

لن يصل لك الآخرون ما دمت مصراً على الاختفاء.

يلفت انتباهه سعال أمه المتزايد... فقفز قفزتين ليصل إلى غرفتها.. كان تنفسها سريعا وبصعوبة بالغة.. تغالب نوبات السعال التي ينخلع لها فؤاده.. تتصبب عرقاً.. وحين اقترب منها وجد أن لون شفتيها أزرق ودرجة حرارتها عالية... هنالك اتصل بطبيبها المعالج الذي قرر الذهاب للمستشفي.. لم يكن فعلياً يرى الشوارع أثناء القيادة.. بل إنه لا يذكر كُنه الحوار الذي دار بينه وبين أي أحد قابله قبل أن يراقب بعيون باكية ومخاط أنف يشكل ملامحه ـ أمه الراقدة على سرير بالرعاية المركزة وتلك الأنابيب والخراطيم والأسلاك موصلة بها من كل جانب... تلك الأشياء هي صلتها بالحياة الآن.. خيوط واهية تربط بينها وبين البقاء.

لصق كفيه المفتوحين بزجاج الرعاية فصنع عشر بصمات كأنها (فيش) جنائى.

انتفض ثانية لاهتزاز الهاتف.. (رضوى) مرة أخرى.. بحسم ضغط الزر الأحمر رافضاً المكالمة من أساسها.

أسند ظهره للزجاج.. وغطى وجهه بكفيه.. وفي بطء بدأ جسده في الانزلاق جهة الأرض حتى تكوّم عليـها في إعياء شديد.. لم يدر بنفسه إلا والأذرع القوية للتومرجية وبعض الممرضين من الذكور ينتشلونه وينقلونه بغرفة مجاورة ويسجونه على سرير خالٍ.

كان جسده غلالة هشة من قطن مندوف.. لا سيطرة لوعيه عليه.. يتأمل سقف الغرفة في ذهول.. ويدرك أن شللاً ما قد أصاب أطرافه فهي تستعصي

على الحركة حين يريد.. يصارع السواد الذي يكتنفه... إلا أن ذلك لم يمكنّه من مقاومة ذلك السن الرفيع الذي بدأ ينغرس ـ على غير رغبة منه ـ في ذراعه اليسرى.. يراقب ذلك السائل الشفاف الذي يتسلل إلى أوردته ثم يسقط رويداً رويداً بعد أن خارت قواه.

في برزخ ما بين الوعي واللاوعي يرى نفسه رضيعاً يتحلق حوله أب وأم حانيين يهدهدانه ويداعبانه في دفء.. يصير الرضيع طفلاً في الثامنة يهديه والده الدراجة التي تمناها.. يسقط عنها... فيبكي... فيطمئنه والده أنه سيتقن الركوب غدا وبعدها لن يسقط ثانية.. يصير الطفل شاباً يفقد والده فيذكر حديثه عن النجاح والفشل.. ماذا عن الحلم؟! للمرة الأولى يدرك أنه بلا حلم يحققه.. من كان بلا حلم.. فهو بلا قيمة.. ما قيمة المرء إذا لم يكن لديه ما يصبو إلى تحقيقه؟! هو الآن يحلم.. ولكنه حلم أشبه بالكابوس... يصير الشاب رجلاً يظن أنه يحلم.. فتخونه زوجته... تدور آلاف الصور ما بين هذه المحطات.. يتغيّر الترتيب وتمتزج الصور... تختلط.. تتشظّى... تتناثر كملايين القطع مالئة فراغ الغرفة حوله.... كأنها غبار كوني.. وهو روح هائمة بين النجوم والمجّرات.. مجرد دخان بلا جسد.. لا مادة فيه.

ـ أستاذ (مراد)؟!...أستاذ (مراد).

هب (مراد) مفزوعاً فكاد جهاز الوريد في ذراعه ينفصل:

ـ ماما؟!.. ما بها؟... ماذا حدث؟!..... ماذا حدث؟؟!!!!

تبدأ الغشاوة تنزاح تدريجياً من على عينيه.. يقتحمه الضوء الباهر لشمس النهار من شباك الغرفة الوحيد المنزاحة ستائره.. تربت يد حانية لممرضة شابة على كتفه.

ـ مدام (إيناس) بخير.. لقد تحسنت كثيراً ويفكر الأطباء في فطامها من أجهزة التنفس الصناعي.. يمكنك أن تلقي عليـها نظرة إذا وددت.

كان من المفروض أن يكون (مراد) ممتناً... ومن الذوق أن يشكرها.. ولكنه صار كياناً مذهولاً بلا انفعالات محددة.

مد ذراعه بجهاز الوريد المثبت فيها.. فتورد خد الممرضة خجلاً وتنحنحت.

ـ آه.. عذراً.. لقد كـ...

لم تكمل جملتها.. فهي لم تجد ما تكملها به.. وفي سرعة نزعت الخرطوم الرفيع من ذراع (مراد).. الذي هب لتوّه قاصداً أمه.. حاجاً إليها.. وفي لحظات كان قد ارتدى الأكياس البلاستيكية فوق حذائه وآخر فوق رأسه.. (جاون) أزرق بنصف كم وقناع من نفس اللون فوق فمه وأنفه.. في حذر شديد كأنه يهتك ستر قدس الأقداس وفي تردد ليس له ما يبرره دخل على أمه.. هالة نورانية تطّوقها.. لا يتمكن من منع دموعه عن الانهمار.. كفراشة ترفرف في خجل بدأت (إيناس) تفتح عيونها وقد استعادت شفتاها لونهما الوردى الشاحب.. بينما مازالت الخراطيم في فمها وأنفها والأسلاك الكهربية تتشعب منها لتنتهي عند أجهزة عدة.. يكاد يقسم إنها تبتسم له.. وفتحت عينيها المرهقتين وأغمضتهما كأنها تطمئنه.. انهار (مراد) فوقها وبدأ جسده يرتج من شدة البكاء.. وبالطبع أخرجته الممرضة في مواساة.

تحسنت حال (إيناس) تدريجياً وبدأت تستعد لمغادرة المستشفى بعد أن اجتازت الالتهاب الرئوى الذي أصابها.. كانت (إيناس) ولا تزال مستعدة لتبرهن على حبّها للحياة ورغبتها في البقاء.. بينما (مراد) الآن قد صار شبح إنسان.. هو للأموات أقرب.

هو مريض.. يدرك ذلك أكثر من أي أحد .

هو مريض للغاية.. ربما أكثر من أمه لكنه لا يدري كنه هذا المرض.. يتخيل (مراد) دوماً أن مشكلة أمه هي جسد يذوي.. أما مشكلته هو.. أنه روح تذوي.. وذهاب الروح.. ذهاب بلا عودة.

* * *

(١٨)

كان الأسود من ألوان (سارة) المفضلة... ولكنها اليوم كانت ترتديه حداداً على أمها.. تلك المرأة التي لربما عاشت بعض الترف ولكنها أبداً لم تعرف معنى السعادة.. السعادة على بساطتها شيئ مخيف.. كما أن السعادة كائن خفيف الوزن لطيف شبه شفاف... وكما أن للسعادة أجنحة يطير بها الإنسان فالسعادة أيضاً لها أجنحة تطير بها بعيداً إذا ما طرأ شيئ ما.. أي شيئ.. قلق.. توتر... حزن... مغص... صداع.. إحباط... فشل.. انتظار.. إرهاق... أي شيئ.. ربما لهذا السبب لم تتمكن (نجوى) أبداً أن تستشعرها.. لم تبك (سارة) على أمها... ولكنها أحست باليتم للمرة الأولى.. وكان هذا غريباً عليـها.. فقد كان لديها أب ولم يكن لديها أم وبعدها كان لديها أم.. ثم كان لديها أم صورية دون أب... ثم أصبحت بلا أم ولا أب.. ثم عادت أمها مع إيقاف التنفيذ ثم فقدتها ثانية.. كيف لها أن تشعر باليتم رغم أن إشكالية وجود والدين مستقرين لم تكن من ضمن رفاهيات حياتها؟!

كان مظهر (سارة) المتشح بالسواد يضفي عليـها جمالاً شاحباً وغموضاً مثيراً... أجبر رواد المطعم الفاخر على الصمت حينما تنحنحت معلنة أنها ستبدأ الغناء.. أمسكت العمود المعدنى الذي يحمل الميكروفون وقربته منه

كأنها تهم بأحتضانه.. ثم اقتربت بشفتيها أكثر فأكثر من الميكروفون نفسه.

بدأت الغناء بصوت حزين محمل بالشجن شبه مبحوح:

Toda una vida Estaria Contigo

«لو أني استطيع أن أكون معك حياة كاملة»

No me importa En Que forma

«لا يهمني شكل تلك الحياة»

Ni donde, Ni combo, pero junto Ati

«لا أين... ولا كيف... ولكن معك»

بدأت تلتفت نحوها كل الرؤوس.. لم يكن الغناء بالإسبانية معتاداً في المطعم.. ولكن اللحن الهادئ والصوت الحزين الرائع لـ (سارة) أجبر الجميع على المتابعة بشغف.. الوحدة المفرطة التي تستشعرها من نبرة الصوت.. ضغطها المتأرجح على حروف كلماتها... يشعر الجميع أنها موشكة على البكاء.. على الانهيار.. تطرق هي في الأرض.. تنفصل عما حولها.. ترى بعين الخيال لا بعين الواقع ما عانته أمها في سجنها... ما عاناه والدها في مرضه... حتى ما أحس به (جميل) وأمها تقتله.. كل الألم.. لحظة انتزاع الروح من الجسد.. تهتز نبرة صوتها مصحوبة ببعض الغنة فلا يعود صوت في الكون سواها.

تستمر في غناء الأغنية القصيرة وقتاً.. ولكنه وقت قصير قصر الدهر.. قصر الزمن كله.. كل الحياة... كل الكون منذ لحظة الخلق والتكوين حتى لحظة الانفجار والاندثار.. حيوات بلايين البشر الذين كانوا وكائنون وسوف يكونون.

No me casaria de elecirte siempre

«لا يتعبني أن أخبرك إلى الأبد»

Pero siempre, siempre

«لكن دوماً... ودوماً»

Que enes en mi vida

«أن تكون في حياتي»

Ansiedad، Angustia, desperacion

«حزن... قلق... يأس»

تكرر الجملة السابقة عدة مرات.. تتوقف الموسيقى وهي تكررها في صوت هو أقرب للنحيب.. وأخيراً.. أخيراً جدا.. (سارة) أحادية الانفعالات كما يبدو للآخرين تستسلم لداخلها.. تسمح لدموعها أن تنساب.. على شكل دمعتين هاربتين أولاً... حتى فار التنور.. وأنهمر شلال من ماس سائل يتلألأ وأكف الناس تلتهب من التصفيق.. يبدو التصفيق كأصوات تأتى من بعيد.. بل من زمن آخر.. كأنه تصفيق آلاف السنين.. تصفيق لآلام الإنسان.. حزنه.. قلقه.. يأسه.. تتعالى بعض صفارات الاستحسان.. بل إن بعض الأصوات نادت مطالبة إياها بإعادة الأغنية.. نظرت لهم (سارة) بعيون شاردة وهي تحس غصة في حلقها.. واقتربت من الميكرفون ثانية شاكرة.. تعاني الآن صداعاً مبرحاً وتوشك أن تسقط مغشياً عليـها.. ساقاها خيطان رفيعان لا يقويان على حمل جسدها الضئيل وحريق رهيب مشتعل في صدرها موضع القلب تماما.. ازدردت لعابها في صعوبة.. مدركة أنها لن تتمكن من الغناء ثانية هذه الليلة.. تظن أن أغنية (تشاڤيلّا ڤارجاس) قد أمتعت الجمهور بما يكفي.. وأنها الآن غير قادرة على مواصلة التمثيل.. ربما كان من الجميل أن تستسلم للاغماء.. هنالك وفي طرف قصي من القاعة.. لمحت (جاسر) متكئاً

بمرفقه على (البار)... تعجبت من ملاحقة (جاسر) لها حتى في مكان عملها الآخر.. تلاقت عيونهما.. ففضلت الانسحاب نحو الباب الخلفي للمكان.. كانت تلك الإشارة على ما يبدو لـ (جاسر) كي يغادر موقعه ملاحقاً إياها.. كانت (سارة) تقف وحدها في الزقاق الخلفي المظلم للمطعم وقد أشعلت سيجارة رفيعة بالمنثول من نوع (كاريليا).. كانت المرة الأولى التي يراها فيها تدخن.. هي أيضا لم تبدأ التدخين إلا مؤخراً.. كما أنها لا تدخن إلا في مواقف مثل هذه.. كان جسد (سارة) يرتعد.. للوهلة الأولى يدرك أنها منفعلة للغاية كما أن رداءها خفيف جدا مقارنة ببرودة الجو.. في شهامة خلع چاكتته واقترب منها في هدوء هامساً:

ـ ستبردين يا (سارة)...اسمحي لي.

كانت (سارة) مدركة لوجوده منذ البداية فلم تنتفض حين جاءها صوته وفي هدوء سمحت لـ (جاسر) أن يغطيها بـچاكتته الواسعة جدا عليـها.. وفي صوت خفيض غمغمت بالشكر.. للمرة الأولى بدا (جاسر) كما لو كان مرتبكاً.. لا يعرف من أين يبدأ الكلام.

ـ كنت رائعة.. رائعة جداً.. أكثر من أي وقت آخر.

نفثت دخان سيجارتها في مرارة.

ـ أمي ماتت يا (جاسر).. ماتت.

الآن تفهم (جاسر) حقيقة ألم (سارة).. فحاول أن يواسيها.

ـ البقاء لله.... آ.... آ... هل كانت مريضة؟

رفعت واجهها نحوه محاولة أن تستشف ما وراءه.. نظرت في عينيه مباشرة وقد عقدت ساعديها أمامها ورفعت ذراعاً بالسيجارة إلى فمها ترتشف نفساً جديداً وتزفر في مرارة أشد:

- تقريباً... يمكنك أن تقول ذلك.

أطرق (جاسر) أرضا:

- أنا آسف.

استعادت (سارة) ذاتها كليةً فأجابته في غموض:

- كلّنا مرضى بطريقة أو أخرى.. كلّنا لدينا أسبابنا للموت.. أليس كذلك؟

كانت طريقتها مربكة إلى حد كبير.. فلم يتمكن (جاسر) من الإجابة مغمغماً:

- ربما

خلعت (سارة) چاكيت (جاسر) معيدة إياه إليه وألقت بعقب السيجارة بعيداً قاذفة إياه بإصبعين.. مدت يدها تسلم على (جاسر) وهي تجبره بلهجة تقريرية:

- (جاسر).. صديقي.. فلنبق أصدقاء.. لن يصلح بيننا شيئ آخر... هل تفهمني؟ أنا.. وأنت... لن نكون... شكراً لذوقك.

ثم تركته عائدة وقد ادركت أنه يمكنها مواصلة الغناء.

* * *

(١٩)

ازدادت نوبات الهلع التي يصاب بها (مراد) وصار لا يتنفس بصورة طبيعية طوال الوقت.. كانت (إيناس) ترى كل ذلك وتلاحظه مدركة أن ثمة خطب ما ألمّ بوحيدها ولكنها الآن أضعف من أن تدرك كنهه.. تراهن هي على ذراتها وذرات (هاشم) الداخلات في تكوينه لمنحه ما يتطلبه الأمر من مناعة.. يشكو (مراد) على الدوام من ضربات قلبه المتسارعة حتى إنه حين ذكر ذلك لطبيبها المعالج في إحدى مرات المتابعة طلب منه أن يقوم ببعض الفحوصات والتحاليل... إلا أن روح (مراد) التي صارت لا ترغب في الحياة بكل صورها أجبرته أن يرفض في إباء وشمم معزياً الأمر كله للقلق والتوتر... نصحه الطبيب بتناول نوع من الأقراص المهدئة التي تستخدمها هي أيضاً حتى تتمكن من النوم... يفرط (مراد) في استخدامها حتى لتظن أن المهدئ نوع من أنواع الحلوى يتناولها بلا ضابط أو رابط... كان ما يحدث له أقسى عليها من المرض ذاته.. يذبحها ويحبطها ويقتلها أكثر من أي شيء آخر.. طالبته كثيراً أن يذكر ربه.. يصلي.. يقرأ القرآن.. أو حتى يستشير طبيباً نفسياً... هي المريضة... هي التي من المفروض أن تعاني.. هي التي وصلت إلى خط النهاية لعمر استمتعت به وعاشته طولاً وعرضاً.. أما هو فقد مر

بتجربة مؤلمة.. ويشاركها تجربتها على كره منها ولكن العمر مازال أمامه... تسأله عن مشروعه الخاص... حلم حياته.. روايته التي لطالما تحدث عنها.. فلا يجيب.. تسأله عن عمله الجديد بالجريدة وكيف لم تعد تراه يكتب مقالاته أو عموده الخاص كما كان... فيتهرّب.. كما أنه لا يجيب على أي مكالمات.. يختلي بنفسه أمام الـ «كومبيوتر» أحياناً... فيرقب شاشته شارداً متنقلاً بين الصفحات المتنوعة للشبكة العنكبوتية دون أن يبدو عليه أنه يقرأ فعلاً أو يتابع شيئاً ذا بال.

لربما أن (إيناس) المبتسمة دوماً والمملوءة فرحة وحياة تحس بعضاً من حزن وقلق.. ليس على نفسها.. ولكن على (مراد)... حزن لما آل إليه وقلق عليه من بعدها.

اليوم لم تستطع (إيناس) أن تستقبل تلاميذها لدرس البيانو واعتذرت لهم.. كما لم تتمكن من استقبال صديقاتها في المساء للعبتهم الأسبوعية...

كانت (إيناس) مدركة الآن لمدى قرب النهاية... وكانت راضية تماماً.

لذا لم تكن مشكلة فعلية لها حين لم تستيقظ في الصباح.. لقد صدرت المشكلة لـ (مراد) الذي كان قد جلب الزهور لتوه ودخل عليها الغرفة كعادته ليطمئن عليها.. ناداها أكثر من مرة فلم ترد.. كانت شاحبة أكثر من أى وقت مضى.. كما أنها أيضاً ورغم الابتسامة البسيطة على ثغرها لا تتنفس.. بجوارها أسجت مجموعة من الصور وقصاصات الورق وبعض التذكارات الصغيرة من صندوقها الخاص وأرخت ساعديها بجوارها.

سقطت الزهور من (مراد) في هلع واندفع هاتفاً في أمه ولكن ما من إجابة.. اقترب منها وبدأ يدرك ما حدث مؤملاً أن تكون أمه في غفوة عميقة.. متعبة جدا... أو حتى في غيبوبة.. مستعد هو لكل الاحتمالات.. عدا الاحتمال الذي حدث بالفعل.. تعاظمت الـ (كلا) داخله كمرجل بخاري يغلي.. بدأ

يقرقر ويئز كأنها حمم من اللاڤا الحارقة.. حتى كان الانفجار.. وخرجت من داخله أعلى وأقوى (كلا) صرخها إنسان... انفجر باكياً وهو الذي لم يكن يبدو عليه أنه يتوقف عن البكاء.. أخذ يهز أمه.. في رقة أولاً.. ثم في عنف أخيراً.. وهو يعيد ويكرر.

ـ كلاااا..... كلاااا..... كلاااااا.

كل الألم.. كل الحزن.. كل الاحساس بالفقد.. جسده كله يرتج ويتشنج... يبكيي ويلطم خديه ويولول.. مزق قميصه وتمرغ أرضاً وأخذ يضرب بيديه وقدميه الأرض كالأطفال.

ليس أقسى على المرء من أن يفقد أمه.. حتى إنه يقال إن الملائكة تنادي على الإنسان وتقول له «لقد ذهبت من كنا نكرمك من أجلها».. بالطبع هو لم يسمع الملائكة ولكنه كان يتألم أكثر.. فقد (مراد) كل ما كان يربطه بالحياة.. الآن تمنى فعلا لو كان الموت قد اقتنصه هو بدلاً من والدته.. الآن.. يستشعر كل ألم فقد شعر به في حياته قبلاً فيجده تضاعف أضعافا مضاعفة.. بدءًا من أبسط فقد مثل شيئ كان يستخدمه واعتاد استخدامه وضاع وحتى أعظم فقد كيوم فقد والده.

اليوم.. يبدو أى ألم وأي فقد بجوار ما يشعر صغيراً ضئيلاً كأن لم يحدث.. كالنقطة في مجرة كبرى اسمها فقد أمه.

اكتنفه دوار أسود.. وكان هذا من رحمة الله عليه.. لم يبد بالطبع أي علامات للمقاومة واستسلم لما يشعر به.. مؤملاً أن يستيقظ بعد برهة فيجد الأمر كله مجرد كابوس وانتهي... كابوس سخيف مؤلم قاتل.

مر كل شيئ بعد ذلك.. كما يمر كل شيئ بعد ذلك.. كما يمر أي شيئ بعد أى ذلك.

طقوس الموت.. تصريح الدفن.. كفن.. غسل.. دفن.. مقابر.. معزّين.. معزّين... معزّين كثيرين... ثم الكثير من المعزيين.. برقيات.. رسائل على الهاتف.. صوت القرآن.. صباحات ترتبك وهي تتبادل مكانها مع المساءات.. حتى تظن أن صباحيين سيتتاليان.. أو أن عدة مساءات سترفض لصباح ما بالاختراق.

لم يعد يأكل أو يشرب.. وبالطبع صار الحمام مرتعاً خصباً للعناكب فقد كف عن الدخول منذ فترة.. هو بالطبع لا يعمل... لا يرد على الهواتف أو الرسائل سواء على الهاتف أو الكومبيوتر.. يفتح باب الشقة على مضض وبعد إلحاح شديد من الطارق وقبل لحظة واحدة من انصرافه ليجده محصل الكهرباء أو مندوب جمعية خيرية جاء ليحصل على التبرع الشهرى أو يسأل عن أحذية وملابس جهزتها مدام (إيناس).

صارت جلسته أرضاً محاطاً بمحتويات صندوق أمه متلمساً منها بعض الدفء... يجهد نفسه من أجل تذكر كل القصص الخاصة والتي كانت (إيناس) تجد لذتها في الحكي عنها.

رن جرس تليفونه كثيراً وكالعادة لم يرد.. أعقب ذلك الرنة المعلنة عن ورود رسالة قصيرة.. لم يدر لم غلبه الفضول هذه المرة.. كانت الرسالة من صديق قديم اسمه (نادر).. من أيام الغربة.. قرأ في فتور:

ـ ألف مبروك يا (مراد).. ألف مبروك.. لقد وضعت (ليندا) ذكراً جميلاً.. هو ابنك.. ابنك يا (مراد).. ألف مبروك.

امسك قلماً في تثاقل.. كان كالمدمنين تماماً.. أو كالمغيبين.. بدأ يكتب في وهن....

((.....

ملايين اللحظات... كملايين الشظايا

لحياة تحطمت

خطوات تبعثرت

أميال تقّطعت

فلاشات.... ذكريات... ابتسامات تدور في عقلي

أراها أمام عينيّ

ولكنني الآن أعمى

ولكنني الآن وحدي... كطفل لقيط

تمّر عليّ الشموس تلعنني

وتبصق علي النجوم مطراً كونياً يصهرني

الآن لا أعرفني

فقد صرت أنا

لست أنا

.....))

* * *

(٢٠)

لم تشعر (سارة) قط بأى تغير فيها... هي تواصل بروڤاتها مع الفرقة حتى وإن قلّت نظراً لانشغال البعض على المستوى الفردي في أحايين عدة.. تواصل الغناء في المطعم الفاخر حيث تؤدي أغانيها الأجنبية بالفرنسية والإسبانية والإنجليزية.. فقط هي صارت تدخن أكثر... لقد صارت (كاريليا) المنڤول صديقتها المقربة.. مما جعل (عبير) ـ زميلتها في الشقة ـ تتساءل عما بها... أومأت بكتفيها قائلة:

ـ لاشيئ يا (عبير).. لا تقلقي..

ـ لقد أصبحت قاطرة بشرية يا عزيزتي.. وأنا لم أعهدك مدخنة قبلاً.. أنا طبعاً لا اعتراض لدي.. بل ليس من حقي أساساً أن أعترض.. كما أن (لمياء) زميلتنا مدخنة أصلاً.. فلن يضيرني أن تصيرا اثنتين.. كل ما هنالك أني أظنك تخفين أمراً ما.. قلقاً ما.. خوفاً ما.

ـ قلق؟!.. خوف؟! من أي نوع؟! بل من ماذا أصلاً... آخر شيئ في حياتي كان من الممكن أن أقلق عليه أو أخاف عليه ذهب.. ولم يعد لدي ما أقلق عليه أو أخاف منه.

- ذهب؟!... ماذا تعنين؟

- لقد ماتت أمي يا (عبير).. هذا كل ما في الأمر.. عدا ذلك فأنا في أفضل حال.

- عدا ذلك؟!... وهل هناك أسوأ من ذلك؟

- أجل يا (عبير).. الأمل... الأسوأ هو أن تفقدي الأمل.... تفقدي الرغبة في مواصلة الحياة.. لقد كانت حياتي أشبه بعدة حيوات.. كل منها لا تمت للأخرى بصلة.. كلها عشتها وعاشتني.. عانيتها وعانتني.. وعاندتني.. أنا الآن فقط حزينة.. لا أنكر.. لكن سبيلي الوحيد هو المواصلة.. أن أستمر في الحياة.. ما تبقى لي فيها.

نظرت لها (عبير) نظرة من يشاهد كائناً أسطورياً.. وغمغمت:

- أنت إنسانة فريدة يا (سارة).... أنا لم أعرف أحدا مثلك.. عندما فقدت خطيبي في حادث سيارة ظننت أنها نهاية العالم.. لم أتمكن بعده من المواصلة.. مات شهرين قبل زفافنا وكنا قد أعددنا أغلب الأشياء.. نحن من المنصورة أصلاً والأمور عندنا ليست بتعقيد الأمور هنا.

- ولكن الحياة استمرت.. أليس كذلك؟

كانت دمعتان صامتتان تترقرقان على خدي (عبير) التي اكتفت بالإيماء إيجاباً... فتحت (سارة) ذراعيها لتستقبل زميلة السكن التي وجدت نفسها مندفعة في تلقائية ثم تجهش بالبكاء في حضن (سارة) الدافئ.

كان الموقف برمته عجيباً.... السائلة عن الأحوال تبكي في حضن المتوفاة أمها؟!

بدأت (سارة) تربّت على كتف (عبير) في حنان.. وقبّلتها في رقة على قمة رأسها.. فتشبّثت (عبير).. أكثر.... فأكثر....

* * *

ثانية يرن جرس الباب متزامناً مع رنّات مصّرة لهاتفه و(مراد) مازال على وضعه الأرضي الذي صار مكانه المفضل... حتى أن ملاءة سريره هي نفسها الملاءة التي كانت (إيناس) قد فرشتها قبل أن تقرر الذهاب لمكان أفضل.. مازالت رائحة الخوخ عالقة بها لم تتأثر ولكن (مراد) لا يعرف هذا.. فهو قد كف عن النوم في سريره منذ الـــ.....

رنين.. ورنين.. هما طريقان للجنون.

إصرار عجيب من الطارق والهاتف.. كلاهما يرغبه في شبق.. كأنه قد صار الكون لهما.. الهاتف من الممكن أن يتخلص من رنينه بتحويله للوضع الصامت.. لكنهم لم يخترعوا مثل هذه الخاصية لجرس الباب بعد.. والصداع يخترق رأسه ولا يبدو عليه أنه أصلاً يتركه.. هكذا حسم (مراد) الأمر مقرراً أن يكون أسخف كائن على وجه الأرض للشخص الذي.....

- (رضوى)؟!

ألجمته الدهشة وعقدت لسانه.. إنها (رضوى).. كانت واقفة قُبالة الباب ترتجف... مدركة الآن فقط وبعد أن رأت (مراد) على هيئته المزرية تلك حيث تشعّث شعره ونمت ذقنه بغير تهذيب وبقع ملابسه واضحة للعيان أنها قد تهوّرت.. أنها أقدمت على خطوة أخرى من خطواتها غير المحسوبة.. تلعثمت وتثأثأت:

- مـ.. مـــ.. (مراد)؟؟.... أســ... أستاذ... أستاذ (مراد).... أستاذ (مراد)...

- (رضوى).. آنسة (رضوى)... آ.... آ....

لم يكن من المناسب حقاً أن يدعوها للدخول.. فقد صار عزباً الآن.. يعيش وحيداً بلا أم.

ـ لا يوجد أحد بالمنزل... آسف.

شكرته مغمغمة... ثم أطرقت أرضاً معتذرة هي الأخرى.

ـ أعذرني يا أستاذ (مراد).. أنت لا تجيب على الهاتف.. لا ترد رسائل الهاتف ولا الـ «إيميل».. أرسلت لك عدة مرات على الـ «فيسبوك».. ولكنك غير موجود.. حتى ظن الجميع أن مكروهاً ألمّ بك... فقلقت..... أقصد قلقنا عليك.. أحضرت عنوانك من ملفك بالجريدة... و.....

رفعت عيناً راجية تواجهه.. محاولة أن تستشف هل هو سعيد أم غاضب من هذه الزيارة المفاجئة.. هذا الاقتحام الواضح لحياته.. هذا التصرف البعيد كل البعد عن الحصافة والرزانة.

إلا أن (مراد) لم يحرّك ساكناً.. كما لم ينطق.. وقد بدأ هذا يؤذيها ويحرجها أكثر.. فتخلّت (رضوى) عن حذرها أكثر.

ـ أعلم أنه لا يمكنني الدخول ولكن ألا يمكنك على الأقل أن تدعوني لفنجان من القهوة في أي مكان قريب؟

كان الدور على (مراد) الآن ليستشعر بعضاً من حرج... فوأده سريعاً بقوله:

ـ (رضوى).. آسف جداً.. أمي ماتت وأنا غير مستعد لأن أ.....

ـ ماذا؟... أنا آسفة جداً يا (مراد).. آسفة جداً... البقاء لله... آسفة جداً...

أطرق (مراد) أرضا فأدركت (رضوى) حياله حنيناً جارفاً حتى تقسم إنها موشكة على أن تحتضنه.. ليس شوقاً.. ولا رغبة.. بل حناناً.. بل تأثراً... احتضان إنساني بحت... ليس احتضاناً كالذي يحدث بين رجل وامرأة.

ران الصمت بينهما.. ويبدو الصمت عندها أبلغ كثيراً من أي كلام.....

المساحات البيضاء في حياتنا تتجاوز أهميتها في أغلب الأحيان عن المساحات التي نملؤها بالكلام.

أدرك (مراد) عندها أن قلّة ذوقه مع (رضوى) لها حدود.. وأنه ربما بلغ هذه الحدود.. والأرجح أنه تجاوزها.. مثل هذا التفكير غير المعتاد والخاطر الذي راوده على غير استعداد هما ما شجعاه على أن يبادر بدعوتها لمكان قريب.

يحتسيان القهوة... ويستأنفان الحوار.

* * *

تصاعد رنين وصول رسالة قصيرة على هاتف (سارة).. أخفضت بصرها لتقرأها فانزاح الشال الشيفون الأسود عن كتفها العاري وسقط أرضاً.. مصحوباً باستعاذة بالله ذات صوت واضح.. كانت الرسالة من (رمزي) تعزيها في وفاة والدتها بعد أن علم بالخبر من (جاسر)... وكانت الاستعاذة المتأففة من زميلها في المصعد.. شاب عشريني يرتدي الجلباب الأبيض القصير وطاقية بيضاء شبكية... ذقنه ذات ثلاث شعب مدلاة حتى أعلى الصدر.. مسبحة من الكرستال الأبيض في يد... والمسواك في الأخرى يداعب بها أسنانه.. نظر لها شذراً وأومأ برأسه جهة الشال الساقط أرضاً والكتف العاري.

ـ تحشّمي يا امرأة.. الهداية من عندك يا الله.

لا تتمكن (سارة) من وصف شعورها الآن... كما أنها لم تكن في حالة نفسية ولا مزاجية تمكّناها من التفكير السليم.. هي فقط أدركت أنه إذا كان منظرها مؤذياً إلى هذا الحد.. وعريها واضحاً هكذا.. كما أن جارها العزيز ينبهها كي تعدّل من نفسها... لما كان له أن يتفحّص فيها هكذا ولا أن ينظر هذه النظرات

المطّولة لها مباشرة.. بل والأدهي لما ركب معها المصعد من الأصل معرضاً نفسه لأن يختلي بأجنبية في مصعد هابط.

أوشكت أن ترد عليه بكل ما جال بخاطرها.. إلا أنها لوهلة آثرت السلامة.. فانحنت تلتقط شالها ولم يفت عليـها تلك النظرة الوقحة التي رمقها بها الملتحى الشاب إبّان انحنائها.

وصل المصعد فهرولت (سارة) خارجة منه.. والملتحي مستمر في مراقبتها من الخلف... ركبت سيارتها وأخرجت واحدة من صديقاتها العزيزات وأشعلتها في عصبية... نفثت دخان الـ (كاريليا) في غضب.. وهي ترى الملتحي وقد استوقف عم (حسين) البواب ويتحدث معه في انفعال... لم يفتها أيضاً أثناء تحركّها بالسيارة.. أن الملتحي أشار نحوها مرتين أثناء الحديث مع (حسين).

لقد اعتادت (سارة) على مثل هذه المضايقات..

فلم تشذ هذه المرة عن السابقات؟!!!

* * *

لم يستطع (مراد) التعوّد الكتابة مباشرة على الـكومبيوتر...

هو من النوع الذي مازال يستخدم الورقة والقلم.. النوع الذي يشطب جُملاً وكلمات لا تعجبه ولكنها تظل موجودة... بدلاً من ضغط زر الحذف فتنتفي صفة خروج هذه الجُمل والكلمات منه يوماً ما... لا يعلم كتاب (الكيبورد) المباشرين أن المشطوب في بعض الأحيان أفيد.. لأن هذا هو نسق الحياة.. الخطأ فيها لا يحذف بل موجود... هو فقط يتحول إلى ماض.. فنظن ـ مخطئين أيضاً ـ أنه لم يعد له وجود.

أخذ يقلب أوراق روايته التي لا يزال يكتبها منذ عدة سنوات فتحولت

إلى حلم أو مشروع حياة.... كانت روايته تدور في فلسفة الحزن.. وكيف يحوّل الحزن الناس.. أحلام الحياة.. ومن منا يتبع أحلامه ومن منا يسقط في منتصف الطريق... أغلبية الناس تسقط.. حين يكون لديك حلم.. فان هذا يعني أن لديك رحلة.. رحلة البحث عن حلمك.. الرحلة سفر.. والسفر هو من صفات الحياة... حتى وإن لم تغادر مكانك.. اليوم أنت «زماناً» في اليوم و«مكاناً» أنت هنا.. غداً.. أنت «زماناً» في زمن آخر هو الغد.. وربما تكون «مكاناً» هناك.. وحتى إن بقيت «هُنا».. فما يدريك أن «هُنا» اليوم سيكون هو نفسه «هُنا» الغد؟!! هو سفر إذن من زمان ومكان.. وأثناء الرحلة يواجه المرء نجاحات تختلط بالانكسارات... صعود... هبوط.. قُرب.. بُعد.. كل خطوة هي محطة من محطات السفر.. من الممكن أن يتوقف عندها المرء... وتنتهي الرحلة... قد يتوقف المرء في رحلة حلمه في محطة نجاح.. يبقى فيها.. لا يغادرها.. يخاف الفشل الذي من الممكن أن يواجهه إذا ما قرر استئناف الرحيل.. لذا يركن لهذا النجاح ويترك حلمه.. ومن الممكن أن تكون المحطة فشل.. وحينها يكون من السهل أيضاً أن يتخلى المرء عن حلمه... فهو فاشل.. ومصير الفاشلين الفشل... يتوقف الحلم... وتتوقف الرحلة.

الآن يدرك (مراد) أنه متوقف.. وأن محطته الحالية فشل...

يسترجع رسالة (نادر) على الهاتف.

ـ ألف مبروك.. لقد وضعت (ليندا) ذكراً جميلاً.. هو ابنك..

هههه؟؟ ابنه؟؟؟ وما يدريه أنه ابنه؟؟

ثم لِمَ تبدأ الحكاية بـ (ليندا).. ثم تنتهي بها؟!

(ليندا)... (ليندا)... يا (ليندا)...

ليست الأغنية المشهورة بالطبع... ولكنها (ليندا) القدر...

ثم (ليندا) المرارة.. وأخيرا (ليندا) المصير...

لم يفهم مما كتبه شيئاً.. بل يكاد يقسم إنه نسي ما كان يود أن يكتب.

هذا هو الحلم يا صديقى..... صار أضغاثاً...

أضغاث أحلام...

* * *

ازدادت مراقبة الشاب الملتحي (مسعد) للفتيات الثلاث بالدور السابع.. من المنصف أن نقول إنه ربما أن (سارة) هي التي صارت تلاحظ أكثر... شيئ ما في نظرات (مسعد) كانت غير مريحة... غير متزنة... غير صادقة...

تنحنح (مسعد) وهو يصعد معها

ـ آنسه (سارة).. آه آسف.. لقد سألت العم (حسين) عن الاسم.. الحاجّة تود زيارتك.

لا يكف هذا الـ (مسعد) عن إدهاشها.. لقد سأل عنها.. عرف اسمها.. يحدثها هكذا دون استئذان.. وما هو كُنه زيارة الحاجّة؟؟ بل من تكون الحاجّة أصلاً؟! هل هي أمه؟ زوجته؟ أخته الكبرى؟ أى حاجّة يقصد؟!

وجدت (سارة) نفسها للمرة الأولى في حياتها هجومية بشكل مبالغ فيه.. طبائع الناس مختلفة... وربما تكون (سارة) عارفة بدرجة خبير بنوع صنوف البشر.. فقد قابلت تقريباً أغلب القائمة.

هنا أدركت أنه ربما عليها أن تتحفّظ.. لا أن تتحفّز.. والفارق بينهما كبير للغاية... ثم إنها هي أيضا سألت عن اسمه عم (حسين) وعرفت أنه (مسعد)... وأنه جار لهم بالعمارة عائد لتوه من إعارة بإحدى الدول الخليجية.. إذن الحال من بعضه.. فلم يكون حلالاً لها ما تحرّمه على الآخرين.

هنالك وجدت نفسها تنساق في الحوار:

ـ خير؟! أنا تحت أمر الحاجّة في أى وقت.

لم يرتبك (مسعد).. لم يتلعثم.. كما أنه لم ينخفض بنظره طوال الوقت... شكرها.. وانصرف فقد كان في دور أدنى من الدور الذي تقطن فيه (سارة)... لم تمر دقائق حتى كان جرس الباب يرن.. فاندفعت (سارة) ترى من الطارق.. هنالك وجدت امرأة منتقبة عرّفت نفسها بأنها أم (مسعد).. فتحت الباب مسرعة ودعتها للدخول... وما إن انغلق الباب دونهما حتى رفعت السيدة نقابها في تردد.. كانت (لمياء) تدخن كعادتها.. تتلوى يمنة ويسرى وسماعات الـ «إم بي ثري» في أذنها.. ترتدي «بيبى دول» أسود قصيراً.. (عبير) مكّومة على نفسها.. تضع طلاءً لأظافر قدميها وتتابع فيلماً أجنبياً على التليفزيون بلا اكتراث... كانت الشقة فاقدة لأي نظافة أو ترتيب بالرغم من وجود فتيات ثلاث... أطباق غير مغسولة وبقايا أكل هنا وهناك.. أعقاب سجائر في كل مكان.. بل إن رائحة الشقة كلها دخان.. قطع ملابس متناثرة في أماكن عدة خارجية كانت أو داخلية.. مصمصت السيدة شفتيها.. بسملت ثم حوقلت.. أعقبت ذلك باستعاذتين من الشيطان الرجيم.

دعتها (سارة) للجلوس.. وبعد برهة تنبهت الفتاتان لوجود السيدة المنتقبة فلملمت كل واحدة منهما نفسها وانصرفت إلى غرفتها الخاصة.

كان الفضول ينهش جسد (سارة)... إلا أن كل الفضول استحال دهشة تحولت بسهولة إلى غضب فثورة فانفعال فشبه عراك.

الأمر ببساطة.. أن السيد (مسعد) معجب ولهان.. أرسل السيدة الوالدة بغرض الزواج.. وهو غرض نبيل للغاية.. وهو بذلك يعصمها طريق المعاصي.. ينقذها من شرور حياتها.. يسترها ويكسب ثواباً فيها.. شرطه الوحيد.. النقاب وترك العمل.

كم هو سهل وبسيط أن تقرّر للآخرين حيواتهم.

هكذا اشتمت (سارة) رائحة المشاكل وأدركت أن العد التنازلي لسكنها الحالي قد أوشك على الوصول لنقطة النهاية.

* * *

لا ينكر (مراد) أن الجلوس مع (رضوى) أفاده إلى حد ما.. هي المرة الأولى التي يخرج فيها من إطار جلسته الأرضية والعزوف عن العيش التي يحياها.. (رضوى) مستمعة جيدة.. متحدثة لبقة.. وتجيد فن الإنسانيات.. من تفهّم ومواساة وإبداء نصح.. باختصار هي نموذج جيد لصديق... بالطبع (مراد) لا يخفى عليه الاهتمام الواضح به.. بعض اللهفة.. نظرات العينين.. تلك التفاصيل الدقيقة التي تصنع ما يسمى بلغة الجسد.. لغة جسد (رضوى) تنبئه أنها قد اختارت لنفسها توصيفاً مختلفاً من خانات العلاقات الإنسانية.. خانة هو قد ألغاها بزر الحذف... هي علاقة إنسانية لن يخوضها ثانية.. حاول بعدة طرق أن ينبهها لذلك.. وهي مثّلت ـ ربما بغير صدق ـ أنها متفهمة.. كان من الغريب أن يحكي لها (مراد) كل شيئ.. كل ما حدث... كل ما مر به.. كان غريباً أن يتحدث كل هذا الوقت ويخرج من داخله كل هذه الحكايات.. هي أيضاً لم تتوقع أن تستقبل كل هذا... بعض من ندم وأدته سريعاً.. فهي من سعت لذلك.. وها هي تناله.

من الجميل أحياناً أن يكسر المرء وحدته بأذن مستمعة.

قلّب بين الصور التي يضمها صندوق أمه.. فوجد صورة تجمعها بوالده مع بعض الأصدقاء في إحدى الدول الأجنبية.. أخذ يقرّب الصورة من وجهه ويتأمل قسمات الناس فيها.. ابتسامات واسعة صادقة.. ليست كابتسامات (تشيييز) الخاصة بالتصوير.. هي ابتسامات لأنهم يحسون بالسعادة... تعجّب من قدرة صور ثنائية الأبعاد على الاحتفاظ بسعادات الآخرين طوال

هذه السنين.. هو لا يعرف أيّاً مِمَن في الصورة عدا والديه.. هم أشخاص غرباء... بعضهم مصريون وبعضهم أجانب... تأمّل الصورة أكثر فأكثر فبدا له أن درجات سعادتهم في الصورة ربما تكون متفاوتة.. يبدو والديه أكثر من في الصورة سعادة.. يليهم الرجل الأجنبى الأشقر على يسار الصورة... ثم تلك المرأة مصرية الملامح في المنتصف.. وهكذا.. تدريج أشبه بدرجات الألوان... أو ألوان تشبه قوس قزح.

أبعد الصورة عن وجهه.. أحضر هاتفه المحمول.. به كاميرا ٨ ميجابيكسل بدرجة وضوح جيدة.. عَكس اتجاه الكاميرا ليصّور نفسه.. ثم حاول أن يبتسم... ثم...

كليك..

في لهفة انتظر الصورة حتى تتضح.. وجد شكله بشعاً.. هذه ليست ابتسامة أصلاً.. ثم هل هذا الشعر المنكوش والذقن غير المحلوقة والوجه المتسخ يمكنهم أن ينتجوا ابتسامة تدل على انسان سعيد؟! أو أي ابتسامة من أي نوع؟!!

حاول ثانية.. وكليك.. ثم.... كليك....

كليك.... كليك.... كليك....

فكّر أن يحلق ذقنه... يأخذ دشاً ساخناً... يُعمل الفرشاة في شعره لينسّقه.

بل فكّر أكثر.. في أن يحاول الاتصال بـ (ليندا).. يسألها عن كُنه الوليد ومدى صلته به.. أو على الأقل يتصل بـ (نادر) ليسأله عن سر يقينه.

ربما عليه أن يتواصل مع (وليد)... و(محمود).. أصدقاء الماضي.. والذين طالباه أكثر من مرة بعد العودة بإحياء الأيام الخوالي.

أدرك أنه ربما عليه أن يفعل أشياءً كثيرة.. وهو يفضّل حتماً ألا يفعل أى شيئ.. يفضّل أن يتأرجح هكذا بين التردد وبين القرار.. بين اليقين وبين الدوار.

* * *

تسارعت الأمور أكثر فأكثر بالنسبة لـ (سارة) وزميلاتها... إذ إنه من الجائز أن (مسعداً) قد وضع شقة الفتيات هدفاً له... إذ إن زيارة أم (مسعد) التالية استهدفت (لمياء).. فتاة الـ (بيبى دول) الأسود القصير.

رد فعل (لمياء) اختلف قليلاً.

فهي أصلاً من أسرة فقيرة وعملها متواضع.. كما أنها ليست ذات مهارات تمكنّها من التطور أكثر أو أبعد.. إلا بحدود.

لذا فقد اختارت المساومة.. زواج نعم... عدم العمل لا مانع.. أما موضوع النقاب.. فليتركها (مسعد) حتى تقتنع فتلبسه عن إيمان... أما الحجاب العادي فلا بأس به طبعاً.

لا تعرف لماذا ربطت (سارة) بين أمها و(لمياء)؟!

كانت (سارة) على استعداد لتقبّل هذا الأمر.. ولكن ما أدهشها حقاً هو الطريقة العدائية التي بدأت (لمياء) تتعامل بها معها ومع (عبير) أيضاً... التي لم تتقّبل الأمر بتاتاً.. بل إنها تشاجرت مع (لمياء) بشدة متهمة إياها ببيع نفسها من أجل الأمان الزائف.. كيف لها أن تربط مصيرها بإنسان لا تعرف عنه أي شيئ؟!

تزايدت سرعة الإيقاع.. يأتي يوم الخميس... فتتزوج (لمياء) ولا يأتي من أهلها سوى أم وخال وأخ.. لا يقام فرح بالمعنى المفهوم.. بل مجرد احتفال ذكوري بسيط بدار المناسبات الملحقة بالمسجد القريب من العمارة.. لتهبط

(لمياء) من الدور السابع إلى الدور الرابع... وارتدت الخمار.. وهو الحل الوسط بين الحجاب والنقاب.

استمر التسارع بصدام شبه معتاد بين نجار مسلم وميكانيكي مسيحي.. واشتعل الموقف كما تشتعل مثل هذه المواقف.. حرق لمحّلات وسيارات... سيوف وجنازير وسنج ومطاوٍ.. إصابات بلا حصر.. وحالة وفاة واحدة.

إنها (عبير).

المارّة البريئة أثناء المعركة.

الإنسانة التي لا دخل لها بأي شيئ.. تصيبها هي الطعنة النافذة القاتلة.. فتلفظ أنفاسها الأخيرة بين الحشود ولا يحس بها أحد.. هكذا جمعت (سارة) حاجياتها على عجل ووضعتها في سيارتها الصغيرة وانطلقت لعملها عازمة على ألا ترجع.

هذه محطة... وغادرتها....

* * *

ـ هابي بيرث داي تو يو..... هابي بيرث داي تو يو.....

وقف (مراد) مذهولاً مشدوهاً وثغره فاغرا كبوابة إلى عالم داخلي مظلم... الجرس اللعين الذي يفكر (مراد) جدياً أن يوصله بصاعق كهربي... إصرار فظيع لكأنما زلزال سيقوّض العمارة إذا لم يفتح الباب.. الدهشة الأكبر كان مصدرها الثلاثي الذي اجتمع دون سابق معرفة... (رضوى).. (وليد)... (محمود)!!!!

ـ كل سنة وأنت طيب يا (مراد).. هيا ارتدى ملابسك بسرعة.. أنت مدعّو على حسابنا للاحتفال بك.

- احتفال؟ ما الداعي للاحتفال؟! ثم كيف التقى ثلاثتكم؟!

نظر (وليد) و(محمود) إلى (رضوى) كأنما يرجعان الفضل إليها... تورّد خدّها وقد استشعرت اهتماماً ثلاثياً وست عيون ترمقها انتظاراً لما ستقول.. فتنحنحت وكأنها ستلقي بياناً أو كلمة افتتاحية.

- عزيزى (مراد).. (بداية تبدو كما لو أنها قصدت حبيبي (مراد)).. إنه الـ «فيسبوك».. (يجمع شمل قريب وبعيد).. دائرة أصدقائك صغيرة جداً.. ثم إن نداءاتهما على صفحتك الخاصة أوحت لي بمدى قربهما منك... كما أنك قد وضعتهما كمرجعين لك في سيرتك الذاتية بالجريدة.. لا تنس ذلك... يمكنك أن تعرف الكثير من سيرة المرء الذاتية.. رسالة على الـ «إنبوكس».. مكالمة هاتفية.. اتفاق.. خطة.. مطعم.. عيد ميلاد.. بسيط جداً.. أليس كذلك؟!

كان وجه (مراد) خالياً من أى تعبير.. لا يدري السر وراء اهتمام الآخرين به رغم عزوفه عن كل شيئ.. للمرة الأولى يجد في نفسه خوفاً من أن يحتفل ولو بعيد ميلاده.. تردداً في أن يتواصل مع اصدقائه المقرّبين.. قلقاً من أن يستشعر ولو بعض لحظات مسروقة من السعادة.. ربما هو الآن خائف من السعادة.. ويحاول قدر الإمكان أن يتحاشاها.

- أرجوك يا (مراد).. لا تخذلنا.

كانت هذه من (وليد).. فأكمل (محمود) عبارته.

- ثم إن الآنسة (رضوى) قد بذلت مجهوداً كبيراً.. فالمطعم الذي سنذهب إليه مكتمل العدد على الدوام.. خصوصاً في مثل هذا اليوم من كل أسبوع.. والحجز تطلّب منها استخدام علاقاتها الشخصية لتدبّر لنا الطاولة.

أطرقت (رضوى).. وغمغمت في حذر:

- أرجوك يا (مراد).. لا تحرجني أكثر من ذلك.. إنها مجرد ليلة واحدة.. وإن ضايقك الوضع.. يمكنك المغادرة في أى وقت.

تحرّك (وليد) و(محمود) معاً.. وفي تلقائية أخذ كل واحد منهما بذراع لـ (مراد).. قال (محمود):

- هيا يا رجل.. شذّب هذه الحديقة المهجورة في وجهك.. واستخدم بعض الـ «چيل» في شعرك.. أنت تبدو كما لو أنه قد نبتت لك قرون استشعار.

هتف (وليد) بفروغ الصبر:

- هياااا.....

بدأ (مراد) يبدي مقاومة أقل لصديقي عمره.. واستأذنت (رضوى) لتنتظر بالأسفل في سيارتها غير مبالية بإخفاء السعادة التي شعرت بها لاستجابة (مراد).

بدأ (مراد) يستشعر غثياناً مفاجئاً وصديقاه يقتادانه قسراً وقهراً للحمّام.. تسارعت ضربات قلبه بشكل غير مسبوق.. ضاق نفسه في شدة.. وضرب صداع قاهر رأسه.. لم يدر حقاً كُنه ما يحدث له.. استشعر (وليد) ارتجافة جسد (مراد) وهو يحاوره.. فربّت عليه قائلاً بصوت خافت:

- لا تخف يا (مراد).. لم يحدث شيئ....

لم يحدث شيئ؟!!! مرة أخرى تعاوده الجملة التي اعتادت أمّه أن تطمئنه بها منذ طفولته.. (مراد)... لم يحدث شيئ... كان غريباً أن يختار (وليد) هذه الجملة بالذات ليطمئنه بها.. وعندما فتح (محمود) دولاب الحمّام ليحضر فوطة نظيفة.. اقتحمتهم رائحة الخوخ المنبعثة من القرص المجفف الذي كانت

تضعه (إيناس) ولم ينته بعد.. كان الأمر بمثابة رسائل خفية.. كأنها رسائل نصية قصيرة تبعثها (إيناس) من العالم الآخر لوليدها وحبيبها وفلذة كبدها (مراد).

بعض من الدموع انحدرت على خديه.. فاقترب منه صديقاه في مواساة.. ربّتا عليه في حب.. وهما يساعدانه على تمالك نفسه على مضض.. فقال (محمود):

- حينما نفقد شخصاً عزيزاً علينا يا (مراد).. وخصوصاً لو كانت أمّاً.. فإن المرء يتوقف عن الحياة كّلها بعض الوقت.. الأمر كّله أشبه بالمرض.. مرض يوقفك لفترة.. تليها فترة نقاهة.. فيعود المرء ثانيةً لما كان عليه.. فترة المرض قد تطول أو تقصر... ولكنها أبداً لا تستمر... لأن المرض إذا استمر أكثر من فترة معينة فهو يعني أنك تموت... وأنت لم تحن ساعتك بعد يا صديقى.. أنت مازلت بيننا حياً تُرزق.

فأكمل (وليد):

- نحن لن نتركك يا (مراد).. وستعود أفضل مما كنت... فقط اسمح لنا بذلك ولا تقاومنا.

نظر لهما (مراد) بعيونه الباكية والدوار يكتنفه فقاومه في شدة..

ليستسلم لهما هذه المرة.

* * *

(٢١)

Je ne rêve plus

Je ne fume plus

Je n'ai même plus d'histoire

Je suis sale sans toi

Je suis laide sans toi

Je suis comme un orphelin dans un dortoir

لا يمكن لأحد عندما يسمع هذه المقدّمة أن ينشغل عنها... يلتفت الجميع جهة الصوت الرائع الذي جاء أغلبهم خصيصاً اليوم للاستماع إليه.. كان صوتها أكثر حزناً من أي وقت مضى.. مُحّملا بكل المرارة.. كل الألم الذي تستشعره قد تحول إلى غناء.

«ما عدت أحلم.. ما عدت أدخن.. ما عاد لي الماضي نفسه.. إني قذرة بدونك.. إني قبيحة بدونك.. إني كيتيم في عنبر..»

يبدأ الشاب الذي دخل منذ قليل بصحبة ثلاثة من أصدقائه في الانتباه هو الآخر.. بذقنه المهذبة إلى حد ما.. وشعره الذي مازال يلتمع من أثر الجيل الذي وضعه على غير رغبة منه خشية أن يؤذى منظره الآخرين.. فقد كان قذراً.. فقد كان قبيحاً من قبل.. ثم إنه حقاً يتيم..

Je n'ai plus envie de vivre dans ma vie

Ma vie cesse quand tu pars

Je n'ai plus de vie et même mon lit

Ce transforme en quai de gare

Quand tu t'en vas

ترتعد الفتاة التي تغني قليلاً فيرتعد صوتها أيضاً.. تذكر إحساسها حين كان والدها يسافر ويتركها وحدها.. تذكر حين سُجن ثم مات في سجنه.

«ما عادت لدي الرغبة لأن أعيش حياتي... فحياتي توقفت حين رحلت.. ما عادت لدي حياة.. حتى فراشي.. يمسي كرصيف محطة... حين تغادر أنت»

يسترجع الشاب حين مات أبوه وتركه وأمه وحدهما.. يذكر كم كانت أمه تردد هذا المقطع بالذات بصوت عالٍ والأغنية يتردد صداها في غرفتها المغلقة دونها.. لا يؤنسها سوى صندوق ذكريات يبدو كما لو كان بلا قرار.. يبدأ الشاب في تأمل المطربة التي بدت له كما لو كانت متحدّة مع ما تغنّي..

كيف يحوّل المرء كلمات ليست له.. لتبدو كما لو كانت منه؟!

يرتفع صوت الفتاة أكثر فأكثر.. فتصبح هي صوت الكون كلّه.. صمت

مهيب احتراماً للصوت الآمر القاهر المتحكّم النافذ لكل روح حاضرة... تبدأ بعض الأعين في الاغروراق بالدموع فعلاً... ويمكنك أن تسمع نهنهة خافتة هنا أو هناك.

Je suis malade

Complétement malade

Comme quand ma mère sortait le soir

Et qu'elle me laissait seul avec mon dèspoir

Je suis malade

Parfaitement malade

T'arrive on ne sait jamais quand

Tu repars on ne sait jamais où

Et ça va faire bientôt deux ans

.....Que tu t'en fous

تذكر الفتاة محاولات زوج الأم القذرة... الليالي العديدة التي كانت يده تتسلل إليها محاولة أن تنال منها ما تشتهيه... خنوع أمها وخضوعها لما كان الوغد يقوله.. ثم هروبها... وكل ما عانته أثناء الهروب... الليالي القاسية في انتظار غد لا يأتي.

«أنا مريضة.. مريضة بالكامل.. كما كنت يوماً حين تخرج أمي في المساء.. تاركة إياي.. وحيدة... مع يأسي.. أنا مريضة... مريضة تماماً... لا أعرف

متى تصل.. ولا لأي جهة تذهب حين ترحل من جديد.. وقريباً ستمر سنتان تقريباً.. دون أن تكترث»

(ليندا) ولعنة (ليندا).. منذ أن قابلها.. منذ عشقها.. منذ تزوجها.. ثم خانته مع (هنري) في سريره.. ثم ها هو الآن (نادر) يخبره أنها وضعت ابناً ذكراً هو ابنه... لقد رحل أبوه.. ورحلت أمه.. وتركته (ليندا) للخيانة.. وصار وحيداً مع يأسه.. مريضاً تماماً.. الآن يدرك أنه مريض.. مريض بالكامل.. مريض تماماً بالفعل...

Comme à un rocher

Comme à un pèche

Je suis accroché à toi

Je suis fatigué، je suis épuisé

De faire semblant d'être heureuse quand ils sont là

Je bois toutes les nuits

Mais tous les whiskies

Pour moi on le même goût

Et tous les bateaux portent ton drapeau

Je ne sais plus ou` aller tu es partout

للمرة الأولى تقع عينا الفتاة على عيني الشاب فتصلها رسالة من نوع ما.. أشبه ما تكون باستغاثة روح بروح أخرى.. ألف كلمة تنطقها نظرة عين... تخترق المسافات بينهما.. تتألق القاعة بألق غريب كأنه تزاوج ألف نجمة.. ولكن الأرواح المربوطة بالأرض وترابها لا تلاحظ ألقا كهذا.. يواصل شريط

الذكريات الإجباري المؤلم عرضه المتكرر.. العرض الوحيد.. الحفلة الواحدة المستمرة... كألف حياة... ولكن كلها نفس الحياة.. كألف صرخة.. كألف ألم... كألف غريق.. كألف قتيل أو شهيد... الآن تذكر سجن أمها.. وبعين الخيال ترى ما دار بينها وبين (رزقة).. بل ترى كيف قُتلت... ترى وتسمع وتحس كما لو كانت روحاً هائمة.

«كتشبثي بصخرة.. كتشبثي بخطيئة... أتشبث بك... إني مُتعبة ومنهكة من التظاهر بالسعادة أمام الناس... أمضيت ليالي بأسرها وأنا أشرب.. كل الشراب بات له نفس المذاق.. وكل السفن باتت ترفع رايتك.. ماعدت أعرف أين أذهب.. فأنت في كل مكان»

أيها الألم....

أنت في كل مكان أيها الحزن...

لا يمكن له أن يتظاهر بالسعادة... هو متعب ومنهك... هو لا يشعر بالسعادة... والألم والحزن يملآن عليه كل مكان.. كل السفن صارت راياتها سوداء... هذه الفتاة مؤلمة حقاً.. الآن يجد أن عينيه خانتاه.... ولكنها خيانة ليست كخيانة (ليندا).. حتى لو كان كلاهما على كُره منه.. يبدو البكاء لذيذاً.. ومواسياً... مواتياً لما يشعر به ويدركه... للأسف مدام (إيناس) لديها أورام ثانوية بالرئتين وهذا يعني أن المرض منتشر في جسدها... سأجلب لك الزهور يا أمي.. سأجلب أنا الزهور.. أربعة وعشرون قرصاً وكبسولة تزينها اسطوانة أكسيـچين.

أتراه يدفع ثمناً لخطيئة قديمة يجهلها؟!

خطيئة يبدو أنها هي التي تشبثت به.. تأسره وتهزمه وتقتله كل لحظة.. تلاحقه في صحوه وفي نومه إذا ما نام... تلاحقه في ذهابه ومجيئه.. تلاحقه وهو وحيد يائس حزين.. وحتى وهو بين الناس.

تمتد يد الفتاة إلى رقبتها كأنها تختنق ويكاد صوتها يحتبس وهي تغمض عينيها في ألم حقيقي ومعاناة شديدة.

Je suis malade

Complètement malade

Je verse mon sang dans ton corps

Et je suis comme un oiseau mort quand

toi tu dors

Je suis malade

Parfaitement malade

Tu m'as privé de tous mes chants

Tu m`as vidé de tous mes mots

Pourtant moi j'avais du talent avant ta peau

لو كان الاحتضار غناء.. لكان هذا الغناء.. احتضار الأب.. احتضار زوج الأم.. احتضار الأم.. بل واحتضار (عبير).. روح تدمى وهي تتعذب.. دماء على الأرض مجهولة المصدر... سنج.. مطاوٍ... سيوف... قنابل مولوتوف... ثم تسقط (عبير)... بالبساطة التي تسقط بها ذبابة.. أو ورقة شجر... هكذا صبغت دماؤها الأسفلت.. وهكذا تحولت إلى ماضٍ وذكرى... ومع سهولة الدماء والأرواح المذبوحة كل يوم تتحول الأسماء إلى أرقام... والأرقام إلى تاريخ... وكل تاريخ يزيّف لأن ما يصنع التاريخ دم ولكن ما يكتبه مجرد حبر.. والحبر لا أخلاق له.

«أنا مريضة.. مريضة بالكامل... لقد ذرفت دمي على جسدك.. وصرت

كعصفور ميت.. عندما تغفو.. أنا مريضة.. مريضة تماماً.. فقد سلبتني كل شدوي.. وأفرغتني من كل ما لدي من كلمات.. بالرغم من أني كنت موهوبة.. قبل أن أصبح أسيرة جلدك»

لماذا ظن أن فطام أمه من على جهاز التنفس الصناعي تحسّناً... كيف استطاع أن يوهم نفسه بشفاء أمه... لقد نزف روحه يوماً بعد يوم من جرح لا اندمال له... ينظر للفتاة يستجديها أن تتوقف.. فغناؤها يستنزفه هو شخصياً.. يفرغه من كلماته.. ينزع روحه رويداً رويداً.. إنها تأسره... لقد صار الآن روحاً أسيرة.. وتحوّل إلى عصفور ميت.

غطّت الفتاة وجهها بيديها... ثم وضعتهما على جانبي رأسها كأنما تعاني صداعاً رهيباً هو نفس الصداع الذي يشعر به الشاب الآن... تتلاقى الأعين مرة بعد مرة... فيصير الأمر أشبه بالتوافق (synchronization) الذي يحدث بين جهازي كومبيوتر... يتبادل كل منهما آلامه وتجاربه من خلال تيّار خطّي يوصل ما بين أعينهما... صارت هي تغني له وحده دوناً عن سائر الكائنات.. هو صار يبثها لوعته كالطير الذبيح... ذبحته هي بغنائها.. وصار هو مذبوحاً على عتبتها.. لقد أخبرته (رضوى) أن بإمكانه المغادرة متى أراد.. وهو الآن يريد المغادرة... ولكنه أسير.. أسير غنائها.

Cet amour me tue

Si ça continue je crèverai seul avec moi

Près de ma radio comme un gosse idiot

Ecoutant ma propre voix qui chantera

Je suis malade

Complètement malade

Comme quand ma mère sortait le soir

Et qu'elle me laissait seul avec mon déspoir

.....

.....

.....

.....

الآن لم تعد تعرف أنها تغني.. ولم يعد هو يدرك ما تغنيه...

«هذا الهوى يقتلني.. فإذا ما استمر هذا... سأموت وحيدةً من شوقي»

لماذا ارتبطت الوحدة بالموت؟! ما الذي يجعل لفظي (وحدة) و(قاتلة) متلازمين؟ ولماذا يلخص هذا حياتيهما؟! وما العلاقة بين الحزن والألم لتكون وحيداً.. أهو تطوّر من نوع ما؟! أن تكون حزيناً فتتألم.. فتمسي وحيداً فتموت؟!!!! هكذا يفقد كل شيئ في الحياة لونه وطعمه ورائحته... فيصير اللون أسود.. والطعم ماسخاً.. هكذا لا تشم رائحة جميلة.... فلا تشم عطراً.. أي عطر.. حتى لو اشتريت كل العطور.. ولا تشم زهراً ولا خوخاً حتى لو كان مجففاً على شكل أقراص تضعها أمك في كل ركن وكل مكان مستجلبة البهجة والحياة لزمن ومكان وأشخاص يفتقدونها.....

«سأموت وحيدة من شوقي.. بالقرب من مذياعي.. وكطفل أحمق.. سأصغي لصوتي وهو يغني.. أنا مريضة... مريضة بالكامل..»

.....

.....

انتهت الأغنية.. رائعة (داليدا) الخالدة عبر العصور.

والتهبت الأكف بالتصفيق.. هكذا وجدت (سارة) نفسها وعلى غير تخطيط مسبق منها.. تتقدم في بطء جهة طاولة (مراد)... الذي صار في حالة مزرية الآن.. ست أعين ذاهلة ترقب ما يحدث كأنه أسطورة تتجسد.

عيون (سارة) تقتحم (مراد) مواصلة عملية التوافق.. و(مراد) يكمل سرد كل مآسيه على شكل نظرات.

مدت (سارة) يداً مرتجفة مقدمة نفسها لـ (مراد):

ـ (سارة)

كالمنوّم مّد (مراد) يده هاتفاً اسمه.. فغمغمت (سارة):

ـ سامحنى.. أفهم حزنك وألمك.

ـ لكن كيف؟

أشارت بإصبعين إلى عينيها.. ثم إلى عينيه.

ـ إنهما يقولان كل شيء.. هما مرآة الروح.

أومأ (مراد) برأسه مشيراً لها بالانضمام إليهم.. في جرأة شديدة أخبرته أنها تفضّل أن يجلسا بمفردهما... كان من قلة الذوق أن يترك (مراد) أصدقاءه الذين يدين لهم بالفضل لمحاولتهم مساعدته.. وبالطبع لم يشعر أى منهم بـ(رضوى) المسكينة التي اقترب لونها من الأحمر دلالة الغليان... هكذا تبادل (مراد) معها أرقام هواتفهما مع وعد بالاتصال.. وانصرفت عنه.. ولم تنصرف عيناها اللتان ظلتا بعينيه مثبّتتان.....

* * *

(٢٢)

تظاهر (مراد) ما تبقى من مساء أنه يشارك أصدقائه ولكنه فشل وبدا عليه الشرود طوال الوقت... لذا فقد فاته ملاحظة التغيير الذي طرأ على (رضوى) التي أحست بندم شديد على ما فعلته بنفسها.. إذ كيف يقود المرء نفسه وبتخطيطه واختياره إلى التهلكة... هل تكبدّت كل هذا القدر من إهدار للكرامة ومحاولة البحث عن باقي معادلتها الحسابية لتحلّها وتكتمل من أجل أن تهدر ما تبقى منها وتُهدي الحل ـ ربما ـ لامرأة أخرى... (رضوى) الأنثى التي لم تفتها كل ما كان بين (مراد) و(سارة) من حوار بالأعين.. الأنثى تشم رائحة الخطر من أنثى أخرى.. هن كائنات مختلفة لا تنطبق عليهن قواعد الإنسانية.. الآن تدرك (رضوى) أن (مراد) وضعها حيث يريد.. في الخانة التي أخبرها أنه سيضعها فيها ولكن بغرورها الأنثوي ظنت أنه ثمة باب خلفي للتسلل منه إلى قلب (مراد).. هي لم تدرك أن هناك ثمة باب أمامي... وأنها قد استنفدت قواها لتفتحه لـ (سارة) على مصراعيه.

رن جرس الهاتف وهو في طريقه للمنزل.. نظر للرقم سريعاً فوجدها هي.. بكل اللهفة هتف متساءلاً:

ـ (سارة)؟

لم ترد... بل ضغطت زرا فأصدر صوتاً... فتساءل (مراد) ثانية..

ـ ألن تردي؟

فجاءه صوت ضغط الزر مرة أخرى.. فاستأنف:

ـ هل أنت في المنزل؟

فجاءه الصوت مرتين.. فتهللّت أساريره كأنما حل سر حجر رشيد.

ـ آه.. فهمت.. ضغطة واحدة نعم... ضغطتين يعني لا..

فجاءته ضغطة واحدة..

ـ ألن تتحدثي؟

فجاءه الرد على شكل ضغطتين.. ندّت منه قهقهة عصبية قصيرة وبدأ يهدئ سرعته قليلاً محاولاً الاستفادة من أسئلته بالقدر الأقصى..

ـ هل تفعلين شيئاً آخر؟! .. (ضغطتان)...

ـ هل تودين فعل شيئ؟!

فجاءته ضغطة طويلة.. فامتعض قليلاً قائلاً:

ـ وما تكون هذه؟ هل هذه ربما؟؟

فجاءته ضغطة واحدة أعقبتها صفارة استحسان.. ضحك باقتضاب وهو يقول:

ـ أشكرك.. أشكرك.. أنا فقط أحاول..

جاوبه الصمت.. فاستأنف:

ـ حسنا.. ربما تودين فعل شيئ الآن؟ إذن ما رأيك أن نلتقي؟... (ضغطة واحدة)...

ـ حسنا.. حسنا.. سأعود.. لا تتحركي..

فانقطع الخط من الجهة الأخرى.. علت وجهه ابتسامة شاحبة... واقعياً هي ليست ابتسامة كاملة.. ومن المنصف أن نسميها نصف ابتسامة.. هنالك أحس تقلصاً شديداً في معدته.. ورغبة عارمة في القيء.. رغبة لا يمكنه مقاومتها.. توقف بالفعل وترجّل من سيارته للقيء... ربما أن الطعام كان سيئاً... وربما أنه قد توقف عن الأكل فترة طويلة فعندما زاد الحد هذه الليلة عمّا تعوّد عليه تهيجت معدته.. من أين إذن هذا الإحساس الرهيب بالاختناق والذعر وضيق التنفس؟! مسح (مراد) بقايا اللعاب من حول فمه مقرراً أن يقاوم الاحساس البغيض الذي يتمّلكه ولا يهدر فرصته التي جاءته بشكل قدري... هكذا أدار السيارة مرة أخرى مستأنفاً طريق عودته للمطعم.... تتسارع ضربات قلبه فيقنع نفسه أن هذه هي طبيعته.. يضيق نفسه اكثر فيشغل جهاز التكييف رغم برودة الجو في هذا الوقت المتأخر.. يحس صداعاً.... فيضغط بأصابعه على صدغيه..

كانت (سارة) هناك.. أشبه بإلهة إغريقية يتطاير الشال الحريرى الأسود على كتفيها.. تعقد ساعديها أمام صدرها وتنفث دخان (الكاريليا) في تأمل... رعدة بسيطة تعتريها لإحساسها بالبرد... تهلّل وجهها عندما رأت (مراد) وألقت بقية السيجارة غير المنتهية أرضاً... كان الإرهاق والألم باديين على وجهه ولكنه أشار لها للركوب بجواره... أومأت برأسها أن لا وأشارت إليه أن يركن سيارته... ثم أشارت أن يتبعها لسيارتها.. كان كالمنوّم... سابح في بحور مقرّها أبعاد أخرى... كأنه انتقل إلى عالم من العوالم الموازية... يدرك أن ثمة معركة ضروس تدور رحاها داخله.. بين (مرادين).. (مراد) مريض أسود ماتت روحه منذ زمن سحيق.. يحذره من مغبّة ما هو مقبل عليه.. يخبره أن كل النساء (ليندا).... وأن آخر امرأة لم تكن (ليندا) قد ماتت بالسرطان... و(مراد) آخر يخبره أنه مازال في العمر بقية ومادام هنالك نفس يتردد صداه

داخل صدره فعليه أن يعيش... عليه أن يخوض تجربته الخاصة التي هي ليست تجربة أي أحد آخر... يشتبك الـ (مرادان) في عنف.. تسمع لوقع نزالهما صليلاً كصليل السيوف وإذ يناور أحدهما الآخر تسمع أصواتا كأنها حوافر خيول.... كل شيء مقبول في هذا البعد الآخر من العالم.. يصير اللامعقول ممكناً حينما تغادر أرض الواقع وتحيا في العالم الموازي.

ثبّتت (سارة) نظرها عليه مرة أخرى.. لا تدرك كُنه ما تشعر به الآن.. ليس الأمر أن حاجياتها مكدّسة كيفما اتفق بشنطة سيارتها وأنها لا مكان لها تعود له... فقد مرّت بمثل هذا الموقف أكثر من مرة... بل إن الوضع هذه المرة أفضل.. فهي مستقرة مادياً بشكل لم تعهده في نفسها قبلاً.. ولديها عمل وعمل بديل.. الأمر أنها ترغب في قضاء الوقت مع (مراد).. وقت غير محدّد.. وقت مختلف... هل تسلل ڤيروس ما إلى مخّها من عينيه أثناء عملية التوافق الذي تم بينهما في المطعم وهي تغّني؟!

وجد (مراد) نفسه في أصعب موقف يمر به رجل يتعّرف على امرأة للمرة الأولى..

بدء الحوار!!

السؤال الأول الذي لن يبدو ساذجاً أو سخيفاً حين يسأله.. أدرك (مراد) من نسق حياته أن لحظات استمتاعه قليلة.. ربما هو مقبل على إحدى تلك اللحظات النادرة.. فلن يضيّعها في أسئلة من قبل (ما هو باقى اسمك؟) (من أين أنت؟) (هل والداك على قيد الحياة؟) (هل لديك أخوة؟) (ما هي شهادتك؟).. تبدو مثل هذه الأسئلة جديرة بمندوب تعداد سكاني لا برجل وامرأة على وشك كتابة أسطورة!!!

هكذا استمر (مراد) في استخدام أفضل ما يمكنه أن يستخدم.. عينيه.. وهكذا وجدت (سارة) أن هذا الصمت جدير بالاحترام فقادت السيارة إلى

الجهة المجهولة بالنسبة لـ(مراد).. وربما بالنسبة لها.. فهي لا تحسب خطواتها.. لا قبلاً.. وبالطبع ليس الآن... هي تستشعر دفئاً وحناناً تفتقدهما من هذا الرجل الذي بجوارها وقد كان غريباً.. ولايزال... وهو يستشعر بعضاً من سعادة صارت مستحيلة بالنسبة له.. يخشى كل منهما أن يفسد الأمر برمته.. كائنان قدريان تركا أمرهما لعليّ قدير هو من كتب لهما مثل هذا اللقاء.. وهو العالم ـ وحده ـ إلى أين المسير!! ومن ثَمّ المصير!!!

* * *

(٢٣)

حين أدركهما الصباح... سكتا عن الكلام المباح...

لم تتخيل (سارة) أن تكون ليلتها الأولى بعد الأحداث الأخيرة وتركها للمنزل ممتعة هكذا... أن تتلاقى روحها مع روح (مراد) على هذا النحو وبهذه البساطة.. انتهت الليلة وهي لا تعرف غير الاسم الأول ورقم هاتف.. لم تعرف أين يسكن ولا ماذا يعمل وما إذا كان متزوجاً أم لا... لو أنه قرر ألا يرد على مكالماتها إن اتصلت به فسيعني هذا أنها فقدته إلى الأبد.. أرعبها هذا الخاطر المزعج وهي تقدم بطاقتها لموظفة الاستقبال في فندق من فئة النجوم الثلاث قررّت أن تقضي فيه عدة أيام حتى تجد سكناً بديلاً.. كانت شاردة وقد انطفأت بهجتها لوهلة.. أصعب سؤال يسأله المرء لنفسه.. ماذا لو؟!

تعترف لنفسها أن (مراد) شخص غريب الأطوار إلى حد ما... حزين صموت أكثر مما كانت تتخيل.. يحمل داخله روحاً معذّبة ربما هي القاسم المشترك الأعظم بينهما.. مثقف هو بلا شك وعلى قدر لا بأس به من المعرفة بالفنون والآداب.. وكذلك البلدان.

مهذب جداً.. ولكنه مجروح.. مجروح جداً.

سيتصل بها بلا شك... وسيرد عليها لو اتصلت بكل تأكيد... هكذا أخذت تقول لنفسها وهي تأخذ دشاً ساخناً.... لم يكن ساخناً.. فالسخان به عطب ما... ارتدت ثياباً خفيفة ورشت عطراً جديداً بطريقتها التي تبدو كما لو كانت تدخل سحابة عطر وهمية بجسدها... وللمرة الأولى تحس الرائحة قوية نفاذة... هل من الممكن أنها الآن تشم بطريقة مختلفة.. أم هذا فقط اختلاف العطر الجديد؟!

* * *

لو أنه سجل الليلة الفائتة على «ڤيديو».. لما كانت التفاصيل ستمر في عقله طازجة هكذا... حاضرة هكذا... حيّة هكذا... كأنها مازالت تحدث.. كل كلمة وكل حركة أو سكنة أو لفتة أو حتى نَفَس... كل إيماءة أو ابتسامة أو قهقهة صافية رائقة.

هكذا قاوم (مراد) كل الخوف داخله... وكل ما يحدث له إن استشعر أو حتى اقترب مجرد الاقتراب من لحظة سعادة.. هو لا يريد أن يخضع جسده للنوم رغم أنه ظل مستيقظاً طوال الليل مع (سارة)... هو يظن أنه لو نام واستيقظ سيجد ما كان حلماً.. يخشى لو نام ينسى أي لحظة.. هو فعلياً غير قادر على التنفس وألم شديد يعتصر صدره ولكنه يحاول ألا يلقي له بالًا.

لا بد أنه مجنون على نحو ما...

لأن مايحدث له غريب جداً...

أن يشعر المرء هكذا بضيق... ويقتحمه حزن قاهر.. ويكتنفه سواد مجهول المصدر.... أن يشكو جسده هكذا.. أن يخاف على هذا النحو.. أن تصير نظراته زائغة متلفتة لكل الزوايا مذعورة هكذا... فهو يعني أن (مرادًا) يفقد عقله.

هو لا ينكر رعبه من تكرار التجربة.. والاقتراب.. فقد أدرك أن الاقتراب لشخص مثله هو بمثابة اللعنة.. و(سارة) أروع من أن يفقدها على نحو ما... يفقدها للخيانة... للمرض... للموت.. للهجر... يفقدها بأى طريقة كانت... هذا ليس عدلاً... هذا ليس عدلاً بالمرة.. من أين تأتى كل هذه الأشباح التي عليه أن يحاربها... يحس جدران المنزل تتحرك... تضيق عليه المساحة.... يختنق أكثر فأكثر... على الأرضية يرى جيشاً من نقط سوداء... كأنها نمل... تقترب منه.. يتراجع مشدوهاً... يبدأ جيش النمل في تسلق قدميه.. يحس الدغدغة المرعبة لملايين من الأقدام الصغيرة الدقيقة وهي تلامس خلايا جسده فتهزه قشعريرة مرعبة.. هنالك قرر أن يقاوم.. وندّت منه صرخة عاتية.. قبل أن يسقط مغشياً عليه....

* * *

كان من المنطقى بطبيعة الأمر أن تنتظر (سارة) اتصال (مراد)... فهو الرجل... ولكنها لم تكن من هذا النوع من النساء... ولكن (مراد) لا يرد... ربما هو ما زال نائماً... هي لا تعرف كم ساعة راحة يحتاجها بعد قضاء ليلة كاملة دون نوم... لذا فقد أرسلت له رسالة قصيرة.. وبدأت تجهز نفسها للذهاب إلى بروڤـة الفرقة.

لماذا استغرقت كل هذا الوقت لاختيار ما تلبس؟! هي لن تذهب إلى مكان سوى البروڤـة.... لو أنها ارتدت أي شيئ بسيط لكان مناسباً... ولكنها وبمنتهى التلقائية أخذت تتردد بين هذا وذاك... وهذا إذا ارتدته مع ذلك سيليق أكثر.. وهكذا أزف الوقت ووجدت نفسها ربما لمرة نادرة من المرات القليلة التي تصل فيها متأخرة لبروڤـة ما أو عمل.

كان شكلها ملفتاً... وربما عطرها كذلك... رائحة نفس العطر مع نفس الجسد تختلف حسب ما يحس به هذا الجسد... ولكن أعضاء الفرقة لا يعرفون

ذلك... تعالت صفارات الاستحسان والتعليقات ما بين إعجاب وسخرية وتلميح.... قابلت (سارة) كل ذلك بابتسامتها الغامضة الموحّدة.. كانت مرتاحة مطمئنة وهذا يكفيها.

نظرت لهاتفها مرة أخرى... (مراد) لم يطلبها... ولم يرد على الرسالة... هكذا حوّلت هاتفها للوضع الصامت وهي تجاهد لتخفي قلقاً بدأ ينمو داخلها... ربما هو نائم... أو مشغول.. أو يعمل.... ربما نسي هاتفه في مكان ما... ربما هو مع.....

ما اسمها؟!... تلك الفتاة التي كانت معه في المطعم؟! (نشوى)؟! (سلوى)... (فدوى)؟! لا تذكر على وجه التحديد؟! هل هو معها الآن؟ هل بينهما شيئ؟! نفضت رأسها وعلت وجهها ابتسامة امتعاض... لو كان بينهما شيئ لما تركها وعاد إليها ليقضي معها الليلة كلّها.... ما هذه البلاهة يا (سارة)؟!! كيف تفكرين هكذا؟! ولماذا هذا الاندفاع نحو شخص بالكاد تعرفينه؟! هذا ليس من طبعك في شيئ؟!... أليس كذلك؟!

* * *

يوم أو بعض يوم..

هي الفترة التي قضاها (مراد) بين وجود وعدم... ما بين وعي ولا وعي... يصارع أنواء نفسه.. وأشباحاً ونملاً وحوائط متحركة وغرفاً تضيق على ساكنيها.

أمسك هاتفه فوجد رسالة واتصالين من (سارة).... متلهفاً سارع بطلبها... ولكنها لا ترد... هل هي مستاءة من عدم رده عليـها؟! لديها كل الحق... ولكنها لا تعلم ما به.. ولا تدرك ما عاناه بعد لقائهما الليلة الفائتة.

أرسل لها رسالة اعتذار...

«الطفل الوليد عادة ما يكون مزعجاً جداً في بدايات عمره.. وأنا وليد الليلة الماضية.. سامحيني..»

لقد كان محقاً في تشبيهه.. فـ (مراد) جديد قد ولد... وربما هذا هو السر الذي يحدو بـ (مراد) القديم الذي بداخله أن يقاوم... يدرك أن (مراديه) قد اختارا جسده مكاناً لحربهما.... ولكنه لا يجب أن يقف منها موقف المتفرج حتى يقضيان عليه.... لابد أن ينحاز لأحدهما على حساب الآخر.... وهو قد عقد النية على أن ينحاز لـ (مراد) الجديد السعيد المبتهج... لابد أن يستأنف حياته من حيث توقف... سيستعيد عمله وموقعه.. سيتواصل مع أصدقائه.. سيستكمل مشروع روايته.. وسيعتني بنفسه... سيخاطر ويقبل خصمه الجديد في لعبة القمار... ومن الغريب أن يكون الخصم هو نفسه.. ولكنه يقبل.. لو لزم الأمر أن يستعين بطبيب... سيفعل.. هو كاره لما هو فيه.. يكره كل هذا الحزن ويتمنى لو أن يتوقف... أو على الأقل يتوقف عن الإحساس به.. أو حتى الإحساس به بهذه الكيفية وكل هذه القوة الهادرة التي تستهلكه وتصّيره عاجزاً.. ألم يتعلّم من أمّه ولو درساً واحداً؟!

كم أنت عاقّ يا (مراد)... عاقّ وجاهل أيضاً!!!

* * *

كأنها عودة الروح...

هكذا أحست (سارة) وهي تقرأ رسالة (مراد) الرقيقة... وتنهدّت علامة الاطمئنان... جاءها (رمزي) من خلفها وقد استشعر تغيّراً ما طرأ عليها... يرى الآن بوضوح أن (جاسر) بدأ يتحاشاها فأدرك بحس الذكر الفطري أنها صدّته على نحو ما... هو أيضاً لم ينس كيف عاملته أثناء سفرهم في رحلة الإمارات.. يدرك أنها اعتذرت له في حينها... وعاملته جيداً مذ ذاك... مما شجعّه أن يقول:

ـ جميله أنت الليلة يا (سارة).... أنت جميلة كل ليلة ولكنك اليوم أجمل..

ابتسمت له في ود وشكرته:

ـ أحس سعادة واطمئنان لم أعهدهما في نفسي..

أن تكون سبباً في سعادة امرأة فهذا شيئ جيد.. أما أنت تأتي المرأة فتجدها سعيدة بالفعل فهذا يعني أنه لا دور فعلّي لك... إلا إذا كنت ترغب في أن تنغص عليها.. يعرف عازف الجيتار أن أمله ضعيف.. ولكنه مازال متمسكاً به.... فتساءل في تردد:

ـ هل أنت مشغولة هذه الليلة؟

ترددت (سارة) لبرهة قبل أن تكذب.. في الحقيقة هي بلا ارتباطات.. ولكن الليل لايزال يافعاً.. وهي لا تدري ما ستفعله.. قررت أن الشراء أفضل من البيع فسألته:

ـ خير يا (رمزي)؟!

تنحنح في إحراج قائلاً:

ـ الليلة عيد ميلادي.. وسيقيم لي أصدقائي احتفالاً بسيطاً ووددت أن تكوني موجودة..

واصلت (سارة) الابتسام وعقبّت:

ـ ربنا يسهل يا (رمزي).. سأكلّمك.

لم يكن هذا هو الرد الذي ينتظره (رمزي) بالضبط...فغمغم بما لا يُفهم وتركها.

ردت على رسالة (مراد) برسالة.

«أود أن ترافقني الليلة للاحتفال بصديق عزيز»

* * *

أرسل (مراد) ثلاث رسائل يشكر فيها (وليد) و(محمود) و(رضوى).

لقد وضع (مراد) ثلاثتهم في سلة واحدة وهو ما اعترفت به (رضوى) لنفسها بالأمس.. حين وصلته رسالة (سارة) فرد عليـها:

ـ سأمر عليكِ.. أين ومتى؟!

تعاوده كل علّاته إذ هو مقبل على لحظة فرح... ولكنه يتجاهلها كأنها تحصل لجسد غير جسده.. بعد قليل جاءه الرد في رسالة.. وللمرة الأولى منذ فترة يقرر الاعتناء بنفسه ومظهره قليلاً... يذكر أن لديه ماكينة لحلاقة الشعر... يمكنه أن يشذّب بها غابة الحشائش الضارة التي يربيها فوق رأسه... سيكون شكله قطعاً أفضل مما هو فيه... سيحلق ذقنه تماماً.... وربما يضع بعضاً من العطر الذي أهدته (إيناس) إياه بعد عودته ولم يستخدمه حتى الآن.. بل لم يفتح العلبة أصلاً... أمسك بريموت الـ «دي ڤـي دي» الذي كان عُهدة خالصة لأمه... ضغط زر التشغيل فتصاعد صوت (إديث بياف) الأخّاذ... ورائعتها (la vie en rose ـ الحياة باللون الوردى)... تزداد الأعراض التي يعاني منها أكثر من أى مرّة سابقة.... ربما هو يحتاج إلى طبيب يساعده.. يتصاعد صوت (إديث بياف) أكثر ولا يدرك من أين تفوح رائحة الخوخ اللذيذة.. يشعر بالنمل يصعد ساقيه.. ولكنه لا يتأثر.. بل ضرب الأرض بقدميه ليزول الإحساس.. وبدأ يُعمل ماكينة الحلاقة في رأسه محاولاً أن يبدو أجمل... ولو قليلاً...

محققاً انتصاره الأول...

وصل (مراد) لباب الفندق متأخراً ربع ساعة... كانت (سارة) منتظرة...

ولا يبدو عليـها القلق... وهذه المرة لم تكن تدّخن.

* * *

نزلت (سارة) أولاً لعدم وجود مكان لركن السيارة... طلبت من (مراد) أن تبقى معه وينزلا سوياً... ولكنه أراد أن يقوم بدور الذكر الذي يؤثر أنثاه... ولأنها كانت ترتدى حذاءً بكعب عالٍ فلم يرغب لها أن تمشي به لمسافة كبيرة... المُهرة غير المروضة ابتسمت في خجل ونزلت تلبية لأوامر الذكر القائد.

كانت الموسيقى الصاخبة تأتيها من الداخل... وحين دخلت شهقت دهشة... فهذا الرجل يرتدي زي (فرانكشتاين) وهذه الفتاة ارتدت باروكة صفراء ذات جدائل ملوية وتمسك عصاة معقوفة كأنها راعية غنم هولندية بفستانها ذا الـ «چوب» الفضفاضة والحزام القماشي الموصول برقعة بيضاء مربعة.. هذا يرتدي زي رائد فضاء والأخرى كائن فضائي أخضر بذيل وحراشف بارزة.... أتاها (رمزي) والذي كان يرتدي زي لاعب كرة قدم أمريكية.. نزع الخوذة عن رأسه ومد يده لـ (سارة) والسعادة بادية على قسماته.. تحوّلت دهشة (سارة) إلى بعض من غضب فقد ارتدت ملابس سهرة عادية.. لامته على عدم إخبارها أنه حفل تنكري وأن الحضور بهذه النوعية من الأزياء.... فهز رأسه قائلاً:

ـ (سارة).. في أى رداء ترتدينه ستصيرين أميرة.. هذا هو ردائك يا عزيزتى.. أنت تشبهين أميرة من أميرات والت ديزني دون أن تلبسي شيئاً معّيناً.

هكذا لحق به (أمين) المتنكر على شكل ثمرة موز و(جاسر) برداء الرجل العنكبوت ليسلما عليـها... كانت تلك هي اللحظة حين ولج (مراد) منادياً (سارة) ليجد هذا المنظر العجيب.. رفيقته الفاتنة تقف أمام لاعب كرة قدم أمريكية وثمرة موز عملاقة وشبيه للرجل العنكبوت...

قدمته (سارة) بكل سعادة.

ـ أصدقائي الأعزاء.. أقدم لكم... (مراد).

تجاوز (مراد) صدمته سريعاً ورسم ابتسامة مجاملة على وجهه وهو يصافح هذه الكائنات الغريبة محاولاً أن يبدو طبيعياً وأنه يسلّم كل يوم على أشخاص رداؤهم هكذا.

تأبطت (سارة) ذراع (مراد) وقد قررت أن تترك الرجال الثلاثة لخيبات أملهم الواضحة.. أنثى وثلاثة معجبون... ثم تأتى كرة البولينج العملاقة... فتسقط كل الشواخص الخشبية في ضربة واحدة موفقة... ومن الغريب أن يكون لكرة البولينج تلك اسماً... هو (مراد).

لعدة عوامل أهمها رغبتهما في الانفراد سوياً وغرابة شكلهما العادي مقارنة بمرتدي الملابس العجيبة في الاحتفال خرج (مراد) و(سارة) سوياً ليقفا معاً في الشرفة يحتسيان العصير... ويواصلان ما يبدو أنه قد انقطع من حديث... تقطعه قهقهة منها أو تعليق منه... أو ضرب كفها بكفه في حميمية لذيذة... كان حوارهما ليكتشف كل منها الشخص الذي أمامه... وليس أسئلة وكيل نيابة يحاول أن يؤكد شكوكاً في مشتبه به أو ينفيها... عرف كل منهما أحلام الآخر.. ما يحب.. ما يكره.. ما يريده وما لا يريده... كان الكلام يبدو بلا نهاية.

حين قطع (رمزي) خلوتها في خجل ومعترفاً بخسارته تماماً.. طلب من (سارة) أن تغني له أغنية بمناسبة عيد ميلاده.

وافقت (سارة) ووجهها كلّه ابتسامة واحدة كأنه صار هلالاً كبيراً متلألئاً تزينه بعض النجوم.. نظرت لـ(مراد) كأنها تستأذنه... فأومأ لها بالموافقة مبتسماً ومحتضناً كوب عصيره بين كفيّه... هنالك مدّت له (سارة) يدها طالبة يده في تلقائية.

هو أيضاً لم يفكر للحظة وهو يقدم لها يده.

تتشابك الأصابع.. كما تلاقت الأرواح.

تذوق (سارة) طعم السعادة يذوب في فمها.

فتغمض عينيها وتتحرك في خفة كأنها تطير.. لا تمس الأرض بقدميها.. بل هي تسير فوق الهواء بمسافة صغيرة.. تهب نسمة ليل لطيفة فتهز ذيل فستانها فيبدو الأمر كلّه كما لو أن ملاكاً يدخل عليهم من الشرفة ليغني مصطحباً معه (مراد).

(مراد) أيضا كان مسحوباً خلفها غير مبال بكمّ الأعين التي ترمقه في حسد.. غارق هو في بحره الخاص من لذة لم يستشعرها قبلاً... مقاوماً كل الأحاسيس المادية الجسدية السلبية التي تحاول إعاقته الآن.

هو الآن غير خائف... وبدون خوف لا يوجد حزن.. وإذا ما الحزن ولّى وهرب... فهو إيذان للسعادة بأن تحل مكانه بالقلب.

و هكذا يصير الإنسان كائناً لا يقهر.. خالداً أبد الدهر.. يفعل أى شيئ يرغبه.. في الوقت الذي يرغبه.. بالكيفية التي يرغبها.

وهكذا وللمرة الأولى منذ ملايين السنين.. يستسلم (مراد) لِيَدَيْ (سارة) الناعمة الرقيقة والتي كانت قد فرغت لتوها من الغناء وبدأ يراقصها.. يشاركها الألق والطيران... ينصهران معاً فيصيران مجرد طاقة من نور... هي مصدر النور لهذا الكون.. أو تكاد.

* * *

إظلام تام مفاجئ.

ينظر (مراد) حوله محاولاً أن يتبّين شيئاً من هذا الظلام الدامس... ينظر

لنفسه فيرى جسده بوضوح.. يمد يده أمام عينيه فيراها.. ثم يبدأ يشعر بغليان داخله... كأن كل ملايين النمل التي تسلقته قبلاً قد اخترقته واتحدت لتكون نملة واحدة عملاقة تحتل جسده وتقشّره عنها... داخله ينمو وفي سرعة رهيبة.. إحساس رهيب بالحكة في سائر أنحاء جسده.. ينظر لأنامله فيراها آخذة في التمدد والاستطالة... تتغيّر أبعاد جسده كما يعرفها.. من وسط الظلام تخترق وجوه مرعبة... ثمرة موز عملاقة بثغر كفوهة بركان لها أسنان مدببة حادة كأسنان القرش... تقترب بثغرها الفاغر في سرعة... برد فعل سريع ينحني ويغلق عينيه... يفتحهما ثانية ليجد كائناً فضائياً أخضر بذيل وحراشف يزحف نحوه في بطء... يتحرك نحوه فراكنشتاين بحركته الشبيهة بآلي يمشي بزنبرك.. تتعدد الوجوه العدائية حوله ولا يجد وجهاً صديقاً لطيفاً واحداً... يحس أنه صار شرنقة للنملة العملاقة التي توشك على الخروج... أين أنت يا (سارة)؟!.. لا يجدها.. لقد اختفت في الظلام.. هكذا يبدأ جلده في التشقق.. ثم التمزق كقطعة قماش قديمة ويحس الألم المبرّح في سائر أنحاء جسده.. يصرخ فلا يخرج منه صوت... يستغيث ويمد يده طلباً للنجدة... فتحيط به الوجوه العدائية التي تختلط قهقهاتها بالزمجرة العالية.

أين أنت يا أمي؟! يا أبي؟! يا (سارة)؟!!

يسيل منه سائل لزج أخضر اللون كريه الرائحة.

هذا هو دمه الآن.

لا يوجد أحد ممن يبحث عنهم.

الآن أدرك أن التحوّل قد اكتمل وأن المسخ الذي كان يربيه داخله كل هذا الوقت سيخرج للنور الآن.. هكذا استجمع كل الصراخ وحوّله لصرخة واحدة عظيمة هي صرخة أم أثناء المخاض... آن الأوان لميلاد المسخ الحبيس داخل جسده.

تعاظمت الصرخة حتى ظنها رجّت الظلام الذي هو فيه وتردّد صداها إلى ما لا نهاية.

* * *

«..... في اللحظة التي لمستني فيها يدك. .فقدت اتصالي بالواقع.. لقد منحتني عقاراً سحرياً لأمحو كل ندباتي.. أرجوك أيتها الأنثى الحلم ألا تعبثي بقلبي كدمية محشوة... لا تجذبيه كجذبك لأذني دبدوب حميم.. لا تعضيه بأسنان مسروقة أو مقترضة من أنثى قد عضته قبلك فتركت آثار أسنانها غائرة في لحمي كله.. مضغتني لتبصقني فهي لم تستسغ طعمي.. لم تتمكن من بلعي.. تقيأتني ولم تهضمني.. لا تقتليني هكذا كجنين مُجهض لفظه رحم أمه قبل الاكتمال والميلاد... هكذا ستموت بهجتي... قبل التكوين.....»

سطور من رواية (مراد) غير المكتملة

* * *

أفاق (مراد) أخيراً..

فقابله وجه غريب عليه يراه للمرة الأولى وسماعة طبية موصلة بأذنيه.. راقد هو في سريره والرجل الغريب يجاوره والسماعة مثبتة بذراعه من جهتها الأخرى.. هكذا أدرك (مراد) أن هذا الرجل طبيب وأنه يقيس له ضغط دمه.

ازدادت دهشته حين وجد حوله (سارة) و(رضوى) و(وليد) و(محمود).. كيف التأم شمل الشامي على المغربي.

كانت (رضوى) جالسة على كرسي تبكي... و(سارة) واقفة تعقد ساعديها أمام صدرها في قلق.. و(وليد) يطقطق أصابعه في عصبية.. بينما استأذن (محمود) ليدخن سيجارة بالخارج.

ـ أستاذ (مراد).. لقد أصبت بانهيار عصبي... ومن الغريب حقاً أن تصاب بهذا الانهيار وأنت في حفل وترقص والجو كلّه بهجة وفرح... أنصحك باستشارة طبيب نفسي.. هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها شيئاً كهذا.

سألت (رضوى) في قلق متعاظم:

ـ هل هو مريض يا دكتور؟ هل سيُشفى؟!!

قلّب الطبيب شفتيه دون أن يرد.. وأشاحت (سارة)بوجهها وقسمات الجدية بادية عليـها.. التفتت بعد ذلك لـ (مراد) قائلة:

ـ لقد انهرت وأنت تراقصني.. ولم أجد سوى هاتفك.. وأنا لا أعرف بيتك.. كما أنني لم استطع أن آخذك لمستشفى... فكرّت أن أتصل بأصدقائك المقربين... و...

سكتت.. وأطرقت أرضاً.. فأكمل الطبيب.

ـ أستاذ (مراد).. سأعطيك الآن حقنة مهدئة لتستكمل نومك بهدوء وتستريح... وكما أخبرتك...

سكت وهو يغرز سن المحقن في يد (مراد) الذي جزّ على أسنانه جزّة عابرة... فاستأنف الطبيب...

ـ طبيب نفسي... لا تنس...

اصطحب الطبيب أصدقاء (مراد) خارجاً وقد بدأت أجفانه تثقل والنعاس الهادئ اللذيذ يتسلل إليه.. وينام.

* * *

(٢٤)

طوال اليومين التاليين لازم (مراد) المنزل... لم يرد على مكالمات أو رسائل أي أحد... وأخيراً توصل للزر المتحكم في كهرباء جرس الباب من لوحة التحكم في الكهرباء الخاصة بالمنزل فأبطله.

أحس بندم شديد لأنه تناسى أحزانه وحياته وترك نفسه فريسة سهلة لغول البهجة.. ينهش جسده هكذا ويطلق كل المسوخ المشوهة المحبوسة داخله.

الحزن كائن رقيق شفيف لطيف.

إذا أنت كففت عن فعل أى شيئ... فهذا يعنى أنك قد أوقفت أي معاناة جديدة... بدأ الآن يستشعر هدوءًا نسبياً.. يمسك بصندوق ذكريات أمه... يتأمل صورة والده.. الغريب هذه المرة أنه في كل مرة فتح فيها هذا الصندوق كان يشم رائحة الخوخ بدرجات متفاوتة... اليوم هو لا يشمها من الأصل.

بحث بين اسطوانات أمه عن موسيقى البلوز... أو الـچاز.. فلم يجد.

بعد يومين.. طلبه (وليد).. فرد عليه.. كان قلقاً جداً.... ويسأله عما كان يفعله في الفترة الماضية فأخبره (مراد) بأنه كان يستريح.. سأله (وليد) إن كان

قد زار طبيباً نفسياً.. فأخبره (مراد) أنه بخير الآن... وأن تلاحق الأحداث الأخيرة قد أثّر على أعصابه على نحو ما... ولكنه الآن لا يعاني من أي شيئ...

هنالك تردد (وليد) وهو يسأله:

- (مراد) يا عزيزي... هناك صحيفة جديدة ستفتح في الكويت.. رئيس تحريرها صديق عزيز... وقد طلب مني أن أرشح له أقلاماً.. تكوّن هيئة التحرير... ولكن....

سكت لبرهة محاولاً أن يستشف رد فعل (مراد) الذي كان بلا رد فعل.. فذهنه الآن مجرد فقاعات صابون فارغة تهيم في فضاء من لا شيئ....

- الأمر سيحتاج منك أن تسافر.... الكويت.. تسافر هناك... ستكون فرصة لتغيّر جواً... ربما أنك قد اعتدت على السفر على نحو ما.. مكوثك هنا... خصوصاً وأنت الآن وحدك.. ربما في ذلك ضرر عليك.. هناك ستكون مَلهياً في عملك... محاطاً بالعديد من الأصدقاء... وأغلبهم مصريون... ستكون سعيداً هناك.

ما إن سمع (مراد) اللفظ.. حتى تقلّصت معدته.. غمغم في امتعاض.

- سعيداً؟!!

- يعني... إلى حد ما.. هو أفضل من اللاشيئ الذي تفعله هنا... فكّر في الأمر.. لا ترد علي الآن.

هكذا وجد (مراد) أنه ربما لم يُكتب له أن يكون سعيداً.. ككثير من الناس.... ربما أن الاقتراب من (سارة) فيه خطورة بالغة عليه... فهو يعني ألماً جديداً.... ومعاناة أخرى.. وهو الآن صار لا يحتمل أي ألم أو معاناة جديدين.

لقد خاطر.. لعب لعبة قمار.. وخسر.. وعليه أن يتوقف قبل أن يحدث له

ما لا يُحمد عقباه.. يسترجع كلمات الطبيب المندهشة من حدوث انهيار عصبي لشخص يحتفل ويرقص ويبتهج... الطبيب محق أكثر مما يتخيل... إن جسده يعاقبه في كل مرة يراوده أمل أو يحس تفاؤلاً أو يقبل على فرحة أو بهجة.. كأن شيطاناً قد مسّه وأودعه لعنته... لعنة كئيبة حزينة سوداء...

تعالت الطرقات على الباب.. يد مصرّة لا تكف عن الطرق على الباب بعد أن أدركت أن الجرس لا يعمل.

قرر (مراد) التجاهل.

إلا أن الطرقات استمرت خشي معها من أن يتجمهر الجيران.. في تردد ووجل سأل عن الطارق فجاءه صوت (سارة) الواهن الموشك على البكاء أنها هي...

ماذا يفعل الآن؟!!

ماذا يفعل الآن؟!!!!

يدرك أنه موشك على نوبة من نوبات الذعر... هل ستفشل خطته في تحاشي الآخرين.. وخصوصاً (سارة) مصدر بهجته الوحيد الآن منذ اليوم الأول؟!! هل ستقضى عليه (سارة) في النهاية كما حاولت امرأة أخرى في الماضي... هل تكمل امرأة العمل غير المنتهي لامرأة أخرى؟!! وإن تغيرت الأساليب؟!!

- (مراااد).... افتح يا (مراااااد)...

فتح (مراد) الباب... كانت (سارة) منفعلة جداً.. صدرها يعلو ويهبط وتمسك معصمها في ألم... كانت في حالة مزرية وتبدو عليـها آثار عدم النوم.

- ما الذي تفعله بي يا (مراد)؟! ما الذي تفعله بحق السماء؟! لقد قتلتني قلقاً عليك.. لماذا لا ترد على مكالماتي أو رسائلي؟! لماذا تفعل هذا بي؟!.. ألأنني أهتم بك؟

أطرق (مراد) في الأرض خجلاً مدركاً كم هي محقة في تفسيرها.. هي لا تعرف أي شيئ عن حياته الخاصة.. هي لا تعرف (ليندا) ولا خيانتها... موت والده وهو صغير... مرض والدته... ثم موتها... في الواقع هي لا تعرف عنه أي شيئ له قيمة... ما فائدة أن يعرف شخص عن شخص ما أحلامه وأمانيه.. ما يحب ويكره ويريد ويرغب؟!!

ما الذي يعطي فتاة قابلها مرتين كل هذه الحقوق؟!

لكن اللوعة التي كانت تتحدث بها أشعرته أنها تستحق منه بعض التفسير... هكذا قرر أن يصارحها بمشاكله ومخاوفه.. وأنّه يفضّل ألا تأخذ علاقتهما أي منحنيات جديدة لا قِبل له بها.

استمعت (سارة) لكل ما حكاه (مراد).. كل شيئ..

نظرت له في حنو وقد أدركت أنه مذعور منها على نحو ما... توسلت إليه في صوت خافت:

- (مراد)... أرجوك.. دعني أساعدك... أنت بحاجة لمساعدة يا عزيزي...
- مساعدتي الوحيدة هي ألا تقترب مني أكثر يا (سارة).. أنا آسف.. لكن يبدو أن اقترابك مني يحرقني على نحو ما.
- هل قررت الاستسلام لخوفك وحزنك واكتئابك؟! هل قررت الموت حياً؟!

أطرقت أرضاً وهي توشك أن تقول (هل قررت أن تهجرني؟!)

- هذا هو قدري يا (سارة) منذ بدأت الحياة... كل حياتي عبارة عن مأساة كبيرة.. لا مكان لفرح فيها.

تهلّل وجهها لوهلة وهي تهتف:

ـ هل هذا اعتراف ضمني منك أني مصدر فرح؟!

نظر لها (مراد) في توسل وقد اغرورقت عيناه بالدموع.. موشك هو على الانهيار ثانية:

ـ أرجوك يا (سارة).. أنت لا تفهمين؟! رغم كل ما قلته لكِ.. أنت لم تَفهميني.

في رجاء أخير:

ـ دعني أساعدك.

وقف (مراد) كأنه ينهي الحوار:

ـ كلا يا (سارة).. أشكرك.. هكذا أفضل.

كان واقعياً الآن يتمزق من داخله... يكره نفسه ويكره كل ما قاله.. بل ويكره ما يفعله في أحب كائن إلى قلبه الآن.. بطرف عينه رآى جانب فمها وهو يرتعش.... لمعة عينيها إذ هي موشكة على البكاء... نسق تنفسها وهو يتسارع... ونبرة صوتها وهي تختنق.. غمغمت:

ـ كما تريد.. كما تريد يا حبيبي..

حـبـيـبـــي!!

جاء وقع الكلمة على أذنه كالقنبلة.. تسارعت دقات قلبه وتقلّصت أحشاؤه في عنف رهيب حتى كاد يتقيأ.. أشاحت (سارة) بوجهها كأنما

تتراجع عن الكلمة التي تفوهت بها الآن.. يحس (مراد) ندماً شديداً.. ربما أنه لم يستطع أن يوقف القطار المندفع بسرعة مجنونة في محطة مغادرته.. ربما أن هذا قطار لا يقف في أي محطات حتى يصل إلى محطة الوصول...

هكذا نظر لها في تحدّ.. ونطق لسانه ما لم يود قلبه أن يتلّفظ به:

ـ مع السلامة يا (سارة).. مع السلامة..

* * *

لم تعتد (سارة) أن تبكي رغم كل ما مرّت به في حياتها التي تبدو على نحو ما ملحمية.. هي أيضاً سألت نفسها كثيراً لماذا لا تبكي.. هي توشك أن تبكي.. ولكنها لا تفعل.

ولكنها الليلة بكت.

بكت بكاءً حاراً كأنه تعويض عن كل مرات البكاء التي لم تبكها.

تبكي نفسها... على المهانة البالغة التي تعرضت لها... لم تصدّق أنها اعترفت لـ (مراد) بحبها هكذا بكل بساطة... بل لا تصدّق أصلاً أنها تحبّه.. متى وكيف ولماذا؟! هل كانت يائسة وحيدة إلى هذا الحد وهي لا تدري؟! لا يُعقل أن يكون الأمر هكذا فهي لا تعرف واحدة أخرى كانت محاطة بكل هذا العدد من الرجال الراغبين فيها وهي لم تكترث... مهانة أنها قدّمت نفسها بهذه السهولة.. تنازلت ورخّصت نفسها.. لقد ذهبت إليه.. وعرضت أن تساعده.. ولكنه طردها.

طـــردهـــا!!!

المجنون... طردها؟!!! بكل برود وقلة أدب.. هي لا تصدّق أنها دعته بالمهذب قبلاً.. كم كانت مخطئة.. مخطئة تماماً.. أكان يجب أن تنظر هكذا إلى

عينيه الحزينتين وهي تغني؟! أكان يجب أن تترك له كل هذه الفرصة ليخترقها ويتوغل داخلها فيتغلغل بين ثناياها؟!

وهي أيضاً تبكي عليه...

فهو مجنون.. ومريض.. ولا يعرف ماذا ينتظره لو أنه ترك لها الفرصة لتحبه.

أي أحمق مأفون هو؟!!

استمرت في البكاء وهي تفكر أنه الآن وحيد أيضاً..

خانته زوجته... وأنجبت ابناً لا يثق في كونه من صلبه.. تركه والده الرائع وهو صغير جداً وقد كان ولايزال مثله الأعلى.. ثم مرضت أمه... وماتت هي الأخرى.. أيهما مأساوي أكثر... حياته أم حياتها؟!!

لماذا لم تُجنّ هي؟!

لماذا قررّت أن تعيش وتستأنف حياتها.. ولماذا قررّ هو أن يموت... لماذا قررّت هي أن تبحث عن سعادتها وحلمها... وقررّ هو أن يموت.. لماذا قررّت هي أن تنجح وتتقدّم وتزدهر.. وقرر هو أن يموت؟!

أيعقل حقاً يا (سارة) أن تتركيه يموت؟!

هل من المعقول أن يترك أحدهم حبيبه ليموت؟!

مجنون هو.. أليس كذلك؟!

وهل للمجنون أن يقرّر لنفسه ما هو جيّد أو لا.. المجنون ليس له أن يقرّر.

و (مراد) مجنون.. وهي تحبه..

وهي التي ستقرر.. وليس هو..

الأرواح جنود مجنّدة.. وإذا كان رب الخلق أجمعين قد ألف ما بين روحها وروحه فلابد أن لذلك حكمة ما.. ربما أرسلها الله.. بل ولربما خلقها أصلاً ليدفع بها في طريق (مراد) لتنقذه؟!

لكل منا غرض في الحياة.. لكن القليل منا يدركه.

هنالك جاءتها ما يمكن أن تطلق عليه مجازاً قبلة حياة.

رسالة قصيرة من (مراد).. كلمة واحدة.. (آسف).

ردت عليه برسالة أخرى (أنا في الطريق.. افتح الباب عندما أطرقه).

* * *

ـ تسونامي... إنه كموجة تسوماني متعاظمة... تجرف كل شيئ في طريقها... هذا ما يحدث لي.

أحاطت (سارة) «مج» النسكافيه بكفيها تلتمس منه بعضاً من دفء وقد قررت أنها بحاجة للاستماع.. للفهم... لاستيعاب ما يحدث (من) و(لـ) أول شخص تنجذب له على هذا النحو وتتناغم أرواحهما لتعترف له طواعية أنها تحبه.

ـ الأمر حقيقة لم يبدأ هذه الأيام التي عرفتكِ فيها... ولا قبلها.. حين توفيت أمي أو عندما علمت بمرضها بعد عودتي من الخارج.. حين أعود بذاكرتي أجد أن قرار الحزن ربما أكون قد اتخذته منذ الطفولة... وأخلصت له حتى صرنا صنوين لا يفترقان... انتظري.. انتظري.. سأريك شيئاً....

لم تنطق (سارة) ولم تعقّب... تركت حبيبها يغادر للحظات عاد بعدها مصطحباً ألبوم صور ضخم وصندوقاً بديعاً من الصدف مزخرف على شكل حورية ممددة على صخرة بشاطئ بحر رائع.

فتح (مراد) الألبوم وبدأ يشير إلى صورته فيه...

- أنظري يا (سارة).. أنظري.. هذا أنا وعمرى حوالي ثمان سنوات أو تسعاً لا أذكر... أنظري.. هذا أبي وهذه أمي... انظري كم هما سعيدان... أنظري... أنظري لهذا الطفل الواجم بينهما.. هذا أنا.. طفل جاد... طفل سخيف.. طفل تعيس.

بدأ نَفَسه يتهدج وهو يهتف:

- هل تصدقين؟! طفل تعيس بائس حزين بين أبوين متحابيّن سعيدين يستمتعان بحياتهما حتى أقصى مدى؟!!!

تناولت (سارة) الألبوم لتتأمل الصور بنفسها.. فانتقل (مراد) لصندوق أمه مكملاً:

- أنظرى لأمي ماذا كانت تفعل.. لقد كانت تحتفظ بكل شيئ في هذا الصندوق... كانت دوماً سعيدة... محبّة للحياة... ترى فائدة لكل شيئ وأى شيئ.. أنظري!

التقط شيئاً آخر:

- هذه بطاقة صغيرة... كالتي توضع على باقات الزهر.. أنظري.. كلمة واحدة.

نظرت (سارة)... كانت كلمة (أحبّك)....

- وهذا أيضاً.. حبّات متناثرة لعقد انقطع وانفرطت حبّاته كان قد

أحضره لها والدي في مناسبة ما... وكل هذه القصاصات قماشية كانت أو ورقية... مناديل بشعارات مطاعم شهيرة من كافة أنحاء العالم.. علامة تجارية لأقراص مجففة برائحة الخوخ.. مازالت تردني طرودها من مكان مجهول في هذا العالم.. هل رأيت؟؟ هل رأيت يا (سارة)؟! هذه امرأة استطاعت أن تحتجز سعادتها معها طوال الوقت... تُرى أين سعادتي؟! متى فقدت قدرتي على الفرح؟! أم تُراه عيبا خلقياً ولدت به دون أن أدري؟!!!

أشارت (سارة) لصورة في الألبوم... قائلة..

- أنظر يا (مراد).. هذا شاب سعيد.... هو أنت... وبيدك شهادة... وفي الأخرى ميدالية... أنظر.. أنت هنا سعيد للغاية.

تقلصت معدة (مراد) لدى سماعه لفظة (سعيد للغاية)... وبدا على وجهه أنه نسي هذه الصورة... فتناول الألبوم منها متأملاً... ثم غمغم:

- أجل.. أجل.. هذه جائزة حصلت عليها في كتابة القصة القصيرة من مؤسسة ثقافية شهيرة.. وكنت حينها أبلغ ستة عشر عاماً فقط... يااااه...يا له من زمن!!!

- وهذه أيضاً... (هتفت سارة)

وأشارت لصورة تجمعه ببعض الأصدقاء... تأملها (مراد) وعلّق:

- أجل.. أجل.. هذه في الجامعة... وهذا (وليد) و(محمود) أصدقاء عمري وزملاء الدراسة... أظن هذه الصورة كانت بعد إعلان النتيجة ونجاحي بتفوق.

أشارت (سارة) لصورة أخرى وهي تقول.. و(هذه).. ثم لأخرى وهي تهتف و(هذه)... و(هذه)... و(هذه).. كلها صور مبتهجة وسعيدة.

كان (مراد) كمن تعرض لطلقات سريعة فبدأ يتصبب عرقاً وتزداد عليه أعراض نوبة الذعر التي كانت الآن موشكة.. ها هي موجة تسونامي أخرى ستضربه.

لولا أن خففت (سارة) الإيقاع قليلاً:

- السعادة والحزن.. هما قرارات لإنسان.. المرء هو من يقرر لنفسه ويختار منهما الطريق الذي سيسلكه... وأنا لا يمكنني أن أتركك نهشاً لقرار خاطئ اتخذته لنفسك... يكفيني كمّ القرارت الخاطئة التي كادت تدمّر عليّ حياتي.

ثم شرعت تحكي له قصتها... كلّها.... ومنذ البداية...

* * *

(٢٥)

الفقد سبب الحزن....

نظر (مراد) بخواء لطبيبه (د. رأفت) وهو يتحدث إليه:

ـ لا يوجد مخلوق واحد لم يفقد شيئاً.. وأقسى درجات الفقد هي الأم.. يقولون إن الرجل يظل طفلاً حتى تموت أمه.. فإذا ماتت شاخ فجأة.

بدأت غلالة رقيقة من دموع تتكوّن في عيني (مراد).. بينما (د. رأفت) ينقل بصره عن (مراد) جهة (سارة) التي أصرت على حضور حديث الطبيب لـ (مراد) بعد انتهاء جلسة التحليل النفسي بينهما.. أدركت (سارة) أنها إن لم تتواجد مع (مراد) خلال أغرب رحلات النفس البشرية حين تتعرى أمام ذاتها فإنها ربما لا تستحق مشاركة (مراد) في أي رحلة أخرى من رحلات حياته.

غريب أن يسير قطاران على نفس القضبان، ولكن هذا ما يستطيع الحب وحده أن يفعله...

ـ كان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد.. كان من الممكن أن

تصاب بنوبة اكتئابية.. أو حتى أن يؤدي كل ما تعرضت له إلى اكتئاب مزمن أو متعاظم.. ولكنه لم يحدث.

الآن اتجهت أعين (مراد) و(سارة) جهة الطبيب الذي صمت لوهلة لتحدث كلماته التأثير اللازم:

- لقد أدى ذلك إلى إصابتك بنوع غريب للغاية من أنواع الرُهاب أو الفوبيا phobia.. اسمه (شيروفوبيا) cherophobia أو رُهاب السعادة.. البعض ينطقونها (كيروفوبيا)... تماماً كـ(شيزوفرينيا) schizophrenia أو (سكيزوفرينيا).

ردد (مراد) و(سارة) الاسم في صوت خافت وقد بدا لهما الاسم غريباً للغاية بالرغم من ثقافتهما الواسعة وبرغم أن كليهما سمع قبلاً عن العديد من أنواع الفوبيا المختلفة.

جاء الدور على (سارة) التي أحست خوفاً مفاجئاً.

- هل هو خطير؟؟! هل؟!....

أدرك (د. رأفت) مغزى السؤال فهز رأسه نافياً:

- كلا.. حمداً لله.. هنا يكمن سوء الاكتئاب مقارنة بالـ (شيروفوبيا)... فمريض الفوبيا لا يقدم على إيذاء نفسه... فهو يتحاشى ويتفادى الإحساس بالفرح والسعادة.. يخاف من الإحساس بالبهجة.. يقاتل باستماتة أي فرصة متاحة أمامه للاحتفال أو الانتشاء.. وانتشاؤه وسلامة إحساسه واطمئنانه في الحزن.. الظلام.. الكآبة.. الجمود.

حك ذقنه وأغمض عينه:

- مريض الـ (شيروفوبيا) متوقف عن الحياة.. شبه مشلول.. كما أنه لا يستجيب جيداً للعلاج الدوائي.

جاء دور (مراد) الذي تساءل:

- والحل؟!

وقف (د. رأفت) معلناً انتهاء المقابلة قائلاً:

- سنبدأ بالـ (جروب ثيرابي) أو العلاج الجماعي وسنقيّم التجربة بعد ٤ أو ٦ جلسات.. لا تخف يا عزيزي.. فقط افتح لنفسك فتحة صغيرة للهروب.. اثقب شرنقتك يا (مراد).. اثقبها.

* * *

«ولى فؤاد إذا طال العذاب به

هام اشتياقاً إلى لُقيا معذبه»

- اسمى (علا).

تزوجت ثلاث مرات وطُلّقت خمساً.. بعدها شعرت أن الزواج مشروع فاشل... فقررت ألا أكرر التجربة.

كانت (علا) امرأة أربعينية لم يذوِ جمالها بعد وتدخن بشراهة.

- طوال اثني عشر عاماً كان رفيقي الوحيد كائناً أخلص لي بلا حساب هو قطّي الشيرازي (أليكس).. كان انساناً أكثر من أي إنسان عرفته.. لا يتركني أبداً.. يشاركني كل لحظات ضعفي.. لا ينفر مني حين أبكي.. لا يتململ إذا تحدثت إليه.. لم يشكُ يوماً منّي أو يتهمني بالتقصير.

بدأ صوتها يتهدج ويختنق و(مراد) ينظر لها في بلاهة.. إن ما فقده أكبر وأهم

كثيراً من مجرد قط.. نظر لـ (د. رأفت) الذي جاء وجهه خالياً من أى تعبيرات و(علا) تستأنف الحديث عن نفسها وعن (أليكس).. وكيف عاشا معاً لحظات السعادة.. وكيف أنها بعد فقده لم تتمكن من استئناف الحياة.. وأنها صارت تخاف من أن يدخل أى شيئ جديد حياتها لأنها ستفقده.. لا تقدر هي على أن تعيش مرة أخرى مع تعلّق بشيئ زائل.

تأملها (مراد) ملياً.. متخيلاً نفسه مكانها.. امرأة لم تتوقف حياتها بعد أزواج ثلاثة ولكنها توقفت بعد قط!!

* * *

«أفضل جزء في العثور على من يُحبك هو أنه شخص سينقذك فعليًّا من الوقوع فريسة الحزن.. أو الوحدة... أو كل جنون العالم حولك... من كونك غير مفهوم للآخرين... أو من كونهم يطلقون عليك أحكاماً مسبقة... لو أنك وجدت شخصاً واحداً يفعل كل أو أي من ذلك... فلا تفلته.. فقد لا تجده ثانية»

سطور من رواية (مراد) غير المنتهية

* * *

جلسا معاً.

بينهما أحزان متراكمة وأحلام مؤجلة ومشاعر مرتبكة ومنطق غائب عن حياتيهما ربما منذ الأزل...

(سارة).....(مراد)...

يتركان للصمت دور البطولة.. فهو يبدأ الجُمل الحوارية وينهيها.. يسأل الأسئلة ويرد عليـها.. ربما يفسح الصمت للعيون بعضاً من مجال المشاركة..

وربما تطغى تنهيدة هنا أو هناك على صوت الصمت فيشعران بالذنب فيتوقفا..

(مراد)..... (سارة)....

يترددان.. أسئلة ألف تصرع كليهما.. وهما لا يخاطران ببدء طرحها..

يسأل هو نفسه.. لماذا أحبته؟

وتسأل هي نفسها.. هل من جدوى لما تفعله؟

تقترب أناملها في استحياء... يتلقّف (مراد) طرف الخيط فلا يفلته إذ يقترب بيديه الاثنتين يحتوي كفيها.. شبح ابتسامة شاحبة.. هي تنويعة جديدة لابتسامتها الموحدّة تلوح على شفتيها.. وحدقة مضطربة مهتزة تتأملها في رجاء مختلط بالأمل.

يحفلان إذ يخترق النادل أسطورة صمتهما متسائلاً إن كانا يرغبان في شيئ آخر....

ولما لم يجد منهما إجابة.. تساءل في ذعر إن كان شيئ ما قد حدث.

هكذا وجد (مراد) نفسه ينطق الجملة الوحيدة التي تعني له الاطمئنان.. نطقها وكأنه يسمعها من (إيناس):

ـ لم يحدث شيئ...

الآن فقط.. بدأ يبتسم نصف ابتسامة.. كانت كافية ليشع الألق من عيني (سارة) الرائعتين.

* * *

«في وطني يولد الطفل مرتسماً الوطن على جبينه تجاعيد... كشيخ.. ويموت الشيخ ممسكاً بطرف ثوب الوطن.. كطفل»

- اسمى (عبد الحميد).

موظف سابق بمصلحة الطرق والكبارى... خرج ابني الوحيد (هيثم) منذ سنوات عشر... ولم يعد حتى الآن... هو لم يمت... لدي إحساس قوي بذلك.

(عبد الحميد) رجل أصلع بقسمات متحجرة وعيون تائهة بدموع محبوسة... هو من الكائنات التي اختلطت مشاعرها بملامحها فجعلتهم بلا عمر محدد... صحيح أن الحياة هي التي تحدد أعمارنا وليس وقت الميلاد.

- أنا المواطن المصري الوحيد الذي زار سبعاً وعشرين محافظة... دخل ثلاثمائة وتسعة وأربعين قسماً ومركزاً للشرطة... سألت أكثر من ألف مستشفى ومركزاً طبياً.. ولكني لم أفقد الأمل بعد.

تهدّج صوته وهو يواصل:

- لو أني تأكدت من وفاته؟! لو أني وجدت جثته فدفنته؟!... رأيت مئات الجثث الغارقة في شتى المصارف.. كل الجثث المشوهة.. مجهولة الهوية... أطراف بلا جسد... إعلانات جرائد... مكافأت مالية.. قابلت أفراداً من عصابات خطف... جالست المدمنين.. وبحثت في وجوه أطفال الشوارع.

سالت دموعه وهو يواصل طرق رؤوسنا بلا رحمة:

- عشر سنوات.. عشر سنوات.. لم يعد لدي القدرة على مواصلة الحياة... تركت عملي... هجرت بيتي.. وأصبحت بلا عنوان.. فأقمت في المساجد فترة طويلة... أتنقل ما بينها.. الزمن يتحرك حولي.. وأنا مشلول يرى كل شيئ ولكنه...

أطرق أرضاً.... وهو يختم:

ـ مشلول.

* * *

حين تحب المرأة فيمكنها أن تقدم على أي شيئ مجنون أو غير منطقي..

لا يسأل المرء امرأة تحب عن تبرير تصرفاتها.. وهكذا لا يصح أن تتساءل عمّا حدا بـ (سارة) للاجتماع بـ (رضوى) والتي أدركت بحدس الأنثى أنها كانت غريمة سابقة.. حتى ولو من طرف واحد.. وبالطبع كان (وليد) و(محمود) حاضرين بالتبعية.

وعندما انتهت من السرد كان (محمود) قد انتهى من سيجارته الرابعة.. وترقرقت دمعتان على خديّ (رضوى).. واحمرّ وجه (وليد) وقد آلمته أصابعه من فرط الطرطقة.

ـ أرى أنه كان في حالة جيدة عندما عمل معنا في الجريدة.. كتاباته رائعة.. وهو إنسان جميل.

كانت هذه (رضوى).. فعقّب (وليد):

ـ مازلت أرى أن الكويت هي الاختيار الأنسب.. سيترك كل الألم خلفه ويستأنف حياته من جديد بإيقاع بطيء وهادئ يتناسب مع حالته.. وسيكسب مادياً أيضاً.

نظرت له (سارة) في حنق.. فهي لم تستعن به كصديق مقرّب لـ (مراد) كي يبعده عنها أو يقترح هكذا بكل برود أن تفقده.

أطفأ (محمود) سيجارته الخامسة قبل أن تنتهي قائلاً:

ـ المشكلة هنا.. والحل أيضاً هنا.. نحن الحل.. نحن ثقب الشرنقة.. (سارة) بحبّها الواضح لـ (مراد) ونحن أصدقاؤه برعايتنا وإخلاصنا.

كانت (رضوى) تحتضر الآن وهي تسمع اسم (سارة) مقترناً بالحب الواضح لـ (مراد).. ولكنها حقاً تهتم لأمره ولا يمكنها أن تنسحب هكذا لمجرد أنها لم تفز به.. فعقّبت:

ـ كلنا نحبّه بطريقتنا.. وسنساعده.

حدجتها (سارة) بنظرة نارية وقد بدأت تندم أكثر فأكثر على ما فعلته بنفسها.

قامت (رضوى) بمكالمة مطوّلة وتهلّلت أساريرها وهي تعلن موافقة رئيس التحرير على التعامل مع (مراد) مرّة أخرى ولكن بصفة أسبوعية كما كانت بداياته.

وتعهّد (وليد) و(محمود) باستجلاب كل الذكريات والشخصيات المرحة والسعيدة لإخراج (مراد) مما هو فيه إن أمكن.

كانت الأعين متفائلة متألقة.. فابتسمت (سارة) ابتسامتها الموحدة ولكنها الآن كانت تعني بعضاً من سعادة.

وأمل..

* * *

((.....

خلف الأسوار ظلام دامس....

خزي وعار....

وبقايا فارس....

من زمن آخر....

يعيش في فقاعة...

لا يَرى.. ولا يُرى...

ربما هو أيضاً لا يتنفس...

فقط هو في ظلامه يتحسّس...

بحثاً عن جذوة نار.....

.....))

شبه قصيدة كتبها (إياد)

- اسمي (إياد)....

أعيش الآن مع عمتي بعد واقعة مؤسفة.....

بدأت عضلات وجهه تتقلّص ويتسرّب بعض من لعاب كخيط رفيع يتدلّى من أحد جانبي فمه.

(إياد) طفل صغير في النصف الأول من العقد الثاني.. كل ملابسه سوداء، يرتدي إكسسوارات غريبة كلها جماجم وخناجر وهياكل عظمية.. يضع كحلاً في عينيه بطريقة مخيفة تشبه كثيراً مصّاصي الدماء في السينما العالمية.

- اعتدى عليّ خالي جنسياً يوم عيد ميلادي الثامن.. لم تكن المرّة الأولى.. لكن أبي عرف فقتله.. فانتحرت أمي بإلقاء نفسها من شرفة منزلنا.. ووالدي في السجن الآن.

تفحّص (إياد) وجوه الجميع.. (مراد) يستشعر تقلّصاً رهيباً في معدته ورغبة عارمة في القيء.. فاستأذن ليفعل ذلك.. أرسل رسالة قصيرة لـ(سارة)

وعاد للجلسة وقد تمكّن منه الإعياء.. كان (إياد) لا يزال يواصل فقرة تعذيب الآخرين بنجاح منقطع النظير.. يبدو أن ما حدث مع خاله تكرّر بعد ذلك مع آخرين.

- أكره كل الناس بالطبع.. وهم لا يستحقون سوى الاحتقار.. الجميع يشعر نحوي بالشفقة ويتوددون إليّ بطريقة بغيضة.. لدرجة أنهم يبدون إعجابهم بشِعري دون قراءته.. هم لا يدركون أني أموت كلما سمعت عن احتفال أو عيد ميلاد.

ركّز نظره على (مراد) وسأله في حدة.

- هل تظن أنني شاذ؟؟!!

* * *

(٢٦)

«هذه أرضك الكبرى ودنياك الحافلة..

كرة ضئيلة في بحر الكون المتلاطم..

ومضة من ملايين الومضات في السماء الفسيحة..

لست في الكون وحدك.....»

من مقدمة (لست وحدك)
(يوسف السباعي)

ظل (مراد) صامتاً واجماً كأن الطير على رأسه.. يحدّق في شرود من زجاج السيارة الملاصق له.. (سارة) بالتبعية احترمت مهابة تلك الحالة فكفّت حتى عن التنفس بصوت عالٍ واستغنت طواعية عن زفرة قلق كادت تفلت منها مكتفية بدور سائق السيارة المحترف.. ولم يبقَ لها سوى «كاب» وبذلة لها صفّا أزرار.

تأمُّل وجوه الناس في وضح النهار له وقعٌ خاص..

تتحوّل قسمات الناس وانفعالاتهم إلى وقود للخيال.

امرأة تلبس السواد وتمشي في بطء جنازة وبعض من أكياس في يدها.. بطاطس.. طماطم.. باذنجان.. أو أي شيئ من هذا القبيل.. مطرقة في حزن واضح وقد رسمت معاناتها خطوطاً على وجهها الناحل.

فكّر (مراد).. أنها أرملة تسعى على أولادها، تعاني ضيق العيش، وتمرّد الأبناء.. عمارتها آيلة للسقوط أو لا تستطيع دفع الإيجار، أو غير قادرة على صرف معاش زوجها لتعنّت موظف ما ينتظرها أن ترشوه.. بل ربما لها زوجة ابن عاقّة، وهي لا تود مناقشة الأمر مع وليدها، كيلا تفسد عليه بيته.. ولكنها ترثي لحالها.. لو أن لديها مَن يقف في صفّها لكان الأمر أهون.. لِمَ لا تكون أُمًّا لشهيد أو زوجة لمقهور غلبه الدَين والعيش والحياة؟!!

ارتعد (مراد) لوهلة وقد خُيّل له أن شابًّا ما قد اخترق جسدها ومرّ من خلالها.. شعره مشعث وذقنه غير مهندمة.. كم يشبهه هذا الشاب.. يكلّم نفسه بصوت شبه مسموع ودموع حبيسة تصنع غلالة لامعة على عينيه.

بالقطع هو يتذمّر من رئيسه في العمل أو والده الذي يهينه بشكل ملحوظ أمام إخوته الصغار.. كما أن حبيبته لا بد قد خانته مع صديق مشترك أو يرغب لها والدها أن تتزوج الثري العربي ميسور الحال الذي أحضره لها مَن يظنون أنه يتمنّى لهم الخير.. لا بد أنّه أيضاً قد قُبض عليه ذات ليلة وهو هائم على وجهه أو عائد لمنزله، ولمّا لم يجدوا معه بطاقة شخصية، استضافوه استضافة لطيفة خفيفة عفيفة في مكان ما.. وربما أن الأمر فقط أنه لا يجد عملاً أو فكّر أن يهاجر ولم يتمكّن من جمع عدّة آلاف طلبها منه سمسار السفر.. سيكون أمراً هيّناً لو أن له أخاً احترق في آخر قطار أو أختاً صدف وأن قضت نحبها ـ وأولادها ـ تحت أنقاض آخر عمارة منهارة.

نفس الوجوه الحزينة البائسة يراها في كل مَن حوله.

الفتاة المحجبة..

الطفل الصغير بجوار أمه..

الرجل ذي الجريدة..

الشحّاذ..

بائع البطاطا..

سائق الأتوبيس..

الزوجة في السيارة التي جاورتهم في إشارة مرور..

ثلاثة شباب يمشون متجاورين يدخنون السجائر غريبة الشكل..

الرجل ذي الجلباب الأزرق.....

كانت الوجوه الحزينة تختلط وتمتزج.. تستطيل وتتمدّد.. تذوب وتتشكّل.. تتبدّل العيون والأفواه وتتغيّر الملامح والتقاطيع.. لتكون كل الوجوه لكل الناس.. الأمر يتحوّل إلى لوحة من لوحات (سلفادور دالي) ولو أن (إيناس) موجودة الآن لأخبرته باسم اللوحة.. ولكنها ليست كذلك.

نظر لـ (سارة) فوجدها تبادله النظر.

تفكر هي ـ من جهتها ـ فيما تفعله وهل يستحق؟! لقد هربت مرّة من بيتها، وفي كل مرّة تتعقد فيها أمورها كانت تهرب.. تغيّر إكسسواراتها.. تشتري عطراً جديداً لا تشمّه جيداً.. كما لم تتمكن من التعامل بالجدية اللازمة مع سجن أمها وتخلّت عنها بعد أن أعطتها أملاً زائفاً.. هي الآن صارت مسئولة ولا يسعها الهرب من جديد.. ابتسمت متذكّرة رسالة (مراد) المستغيثة أثناء

جلسة العلاج الجماعي.. فخفّت إليه سريعاً لتنقذه.. ستنقذه المرّة تلو المرّة ولن تملّ ولن تهرب.

جاءت ابتسامتها برداً وسلاماً على (مراد) الذي تمتم في صوت خافت:

- لست وحدي..

- لست وحدك؟!

- حقاً يا (سارة).. لست وحدي..

- أجل يا (مراد).. لست وحدك.. لأنني معك.. ولأن كل أصدقائك معك..

- كلاّ.. أعني الـ (شيروفوبيا).. أنظري.. أنظري جيداً.. كل الناس.. كل الوجوه..

سكت لوهلة.. ثم استأنف:

- لابد.. آ... أنني مختلف.. ربما... آ.... آ.... حالتي مختلفة..

أشاحت (سارة) بوجهها وهي تغمغم:

- ربما..

- ما الذي تريدينه مني يا (سارة)؟!!

نظرت للجهة الأخرى تماماً كيلا يرى وجهها.. وقالت في مرارة:

- اسأل نفسك..

- أنا.. وأنتِ.. ثلج ونار.. موت وحياة.. نحن نقيضان تماماً..

- تماماً؟!! ما نحن إلا وجهتي نظر.. طريقي رحلة.. اختياري مسافر.. نحن واحد يا (مراد).. ولكن من أي جهة تنظر؟!

- ستتألمين وتعانين..
- الألم والمعاناة من خصائص الحياة وأسرارها.. لم يخلقنا الله لرحلة ترفيهية..
- ربما يطول بنا الطريق..
- اخترت من الطريق الصُحبة..
- ماذا لو تخلّت الصُحبة عنك.. أو هربت.. أو جبنت.. أو كانت مريضة ولا شفاء لها؟؟!
- سأكون أنا عندها الصُحبة.. الصُحبة التي لا تتخلّى ولا تهرب ولا تجبن.. وستقاوم المرض كي تبقى..

في رقة متناهية التقط (مراد) يد (سارة) اليُمنى وحرّرها من مقود السيارة.. قلبها لتكون راحتها قبالته وأمال رأسه في حنو ليطبع قُبلة طويلة دافئة حيث يلتقي خط القلب بخط الحياة.. هي نفس النقطة التي يلتقي فيها خط العقل بخط النصيب..

* * *

(٢٧)

الكون مخلوق حي..

يثور حيناً فتكون الأعاصير والزلازل والبراكين..

يبتسم فتزدهر الزهور وتزقزق الطيور وتصفو السماء..

يحزن ويكتئب فيبكي مطراً ويتلبّد غيوماً سوداء..

يكون الكون أحياناً في حالة حب.. أو خجل.. أو يصبح ساخناً..

ولكنه أحياناً يهدأ..

فيتوقف الزمن وتصيب الأيام الرتابة وتخلو من الأحداث..

هكذا استمر الجميع فيما يفعلون..

(سارة) تحضر البروفات.. تغنّي مرّة أسبوعياً في المطعم الشهير نفسه.. تتشبّث بحبّها لـ (مراد) ودعمها اللامحدود.. هي مازالت في فندقها المتواضع فهي انشغلت ولم تبحث جدياً عن سكن أكثر استقراراً..

أصاب (رمزي) و(أمين) بعضاً من ذبول.. وقد تعلّما من (جاسر) عادة

سيئة للغاية صارت هي مرفأهما في الليالي المستوحدة التي يعانياها.. الكأس تلو الكأس حتى يصير العالم من حولهما هلامياً بلا أبعاد.. حتّى أن عزف (رمزي) صار تقليدياً وأشعار (أمين) فقدت الإحساس.. يشهد على ذلك أن الجمهور صار يطالب بأغانيهم القديمة إذ يبدو أن جديدهم مات سريعاً فور الميلاد..

(وليد) انشغل قليلاً بزوجته التي تضع مولودها الثالث ونسي مؤقتاً موضوع (مراد) والجريدة الجديدة في الكويت.. واستبدل بهما الإعداد لعقيقة ابنه الجديد.. وبدأ يوجه الدعوات للجميع..

(مراد) يحاول أن يعيش محاذراً.. مازال يعاني كثيراً من نوبات الذعر والكوابيس والصداع وآلام الصدر وضيق التنفس.. يحضر جلسات العلاج الجماعي التي ينظمها (د. رأفت) بلا حماس.. مؤخراً انضم لهم أرمل ستيني مهندس اسمه (نوح).. يبدي (إياد) و(عبد الحميد) استجابة للعلاج وصارت جلستهما متجاورة.. أما مدام (علا) فقد استأذنت لتحضر دمية محشوة على شكل قط كبير تحتضنه أثناء الجلسات.. أما هو فلا يزال الشخص الأقل كلاماً واستجابة للعلاج بحسب كلام (د. رأفت).. حتى أنه ما زال ينام مكوّماً أرضاً في ركن الصالة..

(محمود) و(رضوى) أصابتهما متلازمة الشخص الاحتياطي أو رقم اثنين أو البديل الجاهز أو أنتم لا ترونا ولكننا موجودون.. فـ(محمود) ـ المدخّن الشره والقلق على الدوام ـ كان الصديق الثاني لـ(مراد) طوال الوقت.. لا يُستمع إلى رأيه ولكنه يشارك في كل شيئ وفي أي شيئ.. يعلم أنه متردد ولديه أزمة ثقة في النفس، كما أنه ليس مميّزاً جداً في أي مجال.. ولكنه مستمع جيد.. ومخلص بجنون.. وهو ما وجدت فيه (رضوى) ضالتها.. فهذه الفاتنة متقدة المشاعر ـ والتي يبدو للوهلة الأولى أنها لا تعاني من مشاكل ـ كانت تحتاج حقاً لهذه الأذن.. فالكل ينظر لـ(رضوى).. يتأمّل (رضوى).. يُعجب بـ(رضوى)..

ولكن لا أحد يسمع (رضوى).. لا أحد يعرف ما بداخل (رضوى).. لا أحد يتواصل مع (رضوى) دون غرض.. هكذا أوصدت (رضوى) الباب أمام كل المحاولات التي وجدت فيها دمية جميلة لا غير.. حتى عثرت على (محمود).. فتعدّدت بينهما الحوارات تليفونياً أو عبر الدردشة الأليكترونية.. ساعات.. وساعات.. تحوّلا بعدها من شخصين لا يراهما أحد.. إلى شخصين موجودين في حياة كل منهما.. واضحين وضوح الشمس في كبد السماء..

أما (جاسر) فلم يضيّع وقتاً بالطبع ويقيم الآن مع صديقته الحميمة الجديدة (روكا).. ينتشيان ويتبادلان اللذة الخالصة دون تعقيدات أو أهداف أو مشاعر..

* * *

«فلينكسر قلبك مرة تلو المرة.. وإلا فكيف له أن ينفتح؟!»

(جلال الدين الرومي)

((هذا الرقم قد يكون مغلقاً أو خارج نطاق الخدمة))

كان سماع هذه الجملة للمرة العاشرة هذا المساء كفيلاً بأن يغادر (مراد) عقيقة ابن (وليد) مبكراً.. إذ إنه سيمضي الوقت الممل بلا رفيقة.. ربما أن (سارة) أغلقت تليفونها لتنعم بقليل من النوم أو ربما أنها نسيت وضعه على الشاحن..

أرسل لها رسالة قصيرة..

((افتقدتك.. كان مساءً سخيفاً بدونك.. كلميني))

وكان هذا آخر ما فعله قبل أن ينكمش في ركنه المعتاد حتى يجيئ الصباح..

كان (مراد) شارداً للغاية أثناء جلسة اليوم وفاته أن المهندس (نوح) ـ الوافد الجديد ـ قد بدأ يستشعر بعضاً من طمأنينة بمجاورة مدام (علا).. كما أن حواره الفردي مع (د. رأفت) جاء خاوياً محبطاً للطرفين وقد اتهمّه بعدم الجدية والاستسلام بسهولة لما يعانيه وطالبه بمقاومة أكبر وإيجابية أكثر..

واقعياً (مراد) لم يستمع كثيراً لنصائح طبيبه وتعليماته فقد كان ذهنه ولا يزال مشغولاً بـ (سارة).. وقد قرّر أنها لا بد مريضة ولا أحد لها سواه..

أحس قلقاً عابراً وتوتراً شديداً حينما استشعر أن أحداً في هذه الدنيا ربما يحتاج له الآن.. ولكنه لا يصح أن يتخلّى عن (سارة) وهي مريضة..

هكذا وجد (مراد) نفسه واقفاً أمام موظف الاستقبال بالفندق الذي تقيم فيه..

ـ الآنسة (سارة) غادرت الفندق منذ الأمس.. آسف جداً..

تلعثم (مراد) وارتبك في شدة وهو يحتد على الموظف..

ـ غادرت؟! ما الذي تعنيه؟! تأكد مرّة أخرى لو سمحت؟!.. (سارة مجدي).. غرفة (١١٣)؟!

ـ أعرفها يافندم.. أعرفها.. فهي عندنا منذ فترة ليست بالقصيرة.. ولكنها غادرت بالأمس على عجل.. أقسم لك.. أكرر أسفي لك..

ضرب (مراد) الـ «ديسك» الخشبي الذي يحتمي به الموظف وهو يسأل فيما يشبه الرجاء المختلط بالتهديد والمغلّفين بالغضب وبدايات الانهيار:

ـ ألم تترك أي رسائل؟!.. ألم تترك رسالة باسم (مراد هاشم)؟!.. ألم تترك عنوانها الجديد؟!.. هل كانت مريضة؟!.. هل زارها أحد ما؟!..

هل غادرت وحدها؟!.. ألم تقل أي شيء؟!.. أي شيء؟!!!!!

قلب الموظف شفتيه في لا مبالاة:

ـ كلا يا سيدي.. والآن أتركني لأن لدي عملاً أؤديه.. مع السلامة.. انصرف لو سمحت.. انصرف الآن..

بالطبع لم يشعر (مراد) بأي إهانة من موظف الاستقبال فقد كان ما يدور برأسه الآن أكثر عصفاً من أن يلقي بالاً لهذا الحدث التافه.. فها هو الآن يواجه «تسونامي» جديد اسمه..

أين (سارة)؟!!!!!

* * *

طوال أسبوع كامل استنفد (مراد) كل ما يعرفه من حِيَل كي يصل لـ(سارة) ولكنه فشل.. هاتفها مغلق على الدوام.. لا تصلها رسائل.. غير موجودة على الـ «فيسبوك» ولا تجيب على تغريداته على الـ «تويتر».. هي لم تذهب للمطعم هذا الأسبوع ربما للمرّة الأولى.. وبعد مجهود كبير استطاع أن يصل لـ(جاسر) الذي سبّه ونعته بالمريض المجنون والذي أصاب (سارة) بالجنون هي الأخرى فقد تركت الفريق منذ أسبوع ولا يعرف عنها شيئاً.. لقد دمّرهم.. ولو لم يكن مريضاً لقتله الآن بيديه العاريتين..

كانت البلاطات التي تكوّن الأرض التي يقف عليها (مراد) تتساقط الواحدة تلو الأخرى.. يسمع قرقرة ألسنة اللهب ويختلس النظر للفراغ الذي يتسع تحته فيرى حمماً بركانية سائلة تلتهم فقاعات هواء كبيرة وردت من جهنم توًّا..

يختنق (مراد) شيئاً فشيئاً كلما اتضح له أن (سارة) ذهبت دون رجعة.. بل ربما لم تكن موجودة من الأصل..

ماذا لو أنها كانت خيالاً ابتدعه عقله ليعوّضه عن غياب أمه؟!

سيكون مثل عالم الرياضيات الشهير هذا الذي تم عمل فيلم عنه؟ (ناش) على ما يذكر..

ولكن صوتها وهي تغني Je suis malade مازال في أذنه.. الفستان الخفيف الذي كانت ترتديه في الحفل التنكري حين أصيب بالاغماء.. جلستهما معاً وهما يقلّبان صندوق ذكريات (إيناس) وألبوم الصور.. الذهاب لـ (د. رأفت).. الـ «شيروفوبيا».. ثم قُبلة على راحة كفّها..

كل شيئ طازج وحقيقي..

أين هو وعدها المأفون إذن؟! ألم تقل له إنها لن تتركه.. إنها لن تتخلّى ولن تهرب ولن تجبن..

أو تمرض..

لا بد أنها ـ حقاً ـ مريضة الآن.. أو أن مكروهاً ألمّ بها.. ولكنه لا يجدها في أي مكان..

تذكّر الآن حكاية (عبدالحميد) الذي بحث عن ابنه في المستشفيات وأقسام البوليس بل والشوارع في كل المحافظات.. هل عليه أن يقوم بالمثل؟! بل هل يستطيع؟!

كلاّ.. الأمر أنها فقدت الأمل فيه.. فقرّرت المغادرة فحسب..

جزء ما داخله ـ ويالله العجب ـ يحس بالراحة لاختفاء (سارة) من حياته ولا يريد له أن يبحث عنها أو يعثر عليها.. هذا الجزء المريض الذي يخبره أن حياته هكذا أفضل.. دون بشر حوله أفضل.. دون مسئوليات أفضل.. دون اعتماد على آخرين أفضل..

((الفقد.. سبب الحزن..))

يذكر الآن هذه الجُملة ملياً.. لماذا يسمح لأحد أن يتوغل أكثر فأكثر ثم يفقده كالعادة ليتحول فقده إلى حزن جديد؟! ألاّ يكون معك شيئ فهذا معناه أنك لن تفقد أي شيئ!!!

أمر بسيط للغاية.. لا أحد.. لا فقد.. لا حزن..

حين بدأ الهدوء يتسلل إليه وخدر لذيذ يشمله إذا بصوت آخر يتعالى داخله.. لا يدري من أين يأتي.. صوت جديد حماسي وغد.. يسبّه بأقذع الألفاظ.. يرثي لحاله ويتهمه بأنه جبان ولا يستحق الحياة.. أنه ضعيف خنوع وأنه عبد ذليل.. بل ويستمتع بخضوعه وعبوديته وذلّه..

المرء حقاً لا يعيش إن لم يكن لعيشته فائدة.. إن لم يسدِ مساعدة لشخص لا يعرفه دون انتظار مقابل.. إن لم يعتمد عليه شخص ما وصار مصدراً لثقته أو قِبلة لاحتياجاته.. لا يعيش المرء حقاً إلا إذا ترك بعضاً من آخرين يرغبون حقاً في أن يشيّعوه ويحضرون جنازته دون انتظار لثواب ربّانيّ أو اقتداءً بسُنّة نبوية..

لا يعيش المرء إلا إذا ترك أثراً لافتقاده..

والحقيقي أيضاً أنه لا سعادة بدون حزن.. الحزن موجود في كل مكان وفي كل النفوس.. يظهر على الوجوه ويتغلغل داخل الأبدان، يسبب المرض والقهر والموت.. يسيطر على كثير من الحيوات، بل والبلدان والأزمان...

الحزن ميراث للإنسانية وسيظل موجوداً حتى آخر لحظة لآخر إنسان في هذا الكون.. لذلك يحاول البشر دوماً أن يخلّدوا لحظات سعادتهم.. لقد حاربت الإنسانية حزنها منذ الأزل.. فابتدع الناس النكات والأغاني والموسيقى والألوان والرسم وكل الفنون.. ولذلك يُسجّل البشر أفراحهم ويصورون مناسباتهم السعيدة.. كذلك تزدهر المصايف وأماكن الترفيه.. بل

ويلجأون لما فيه هلاكهم ـ أحياناً ـ تحت لواء نفس الغرض ....

هنالك تلفت نظرة ورقة زهرية اللون يبدو أنها سقطت سهواً من صندوق أمه وهو يقلّب فيه.. الورقة مثنية في منتصفها.. فردها في وجل وتردد.. ليقرأ فيها..

((حبيبي (مراد)...

البشر يخافون الحزن وليس السعادة.....

فابحث عن سعادتك..... ولا تخف....

حبيبتك (إيناس).....))

تشمّم رائحة الخوخ التي تفوح من الورقة.. وتشمّم رائحة يد أمّه التي كتبت الورقة وثنتها ليجدها الآن.. ابتسم في مرارة فهذه المرأة لا تكف عن شموله برعايتها حتى وهي في عالم آخر.. وهل يوجد أحد يتعلم منه السعادة والحياة أفضل من (إيناس)؟؟!!

* * *

استأنف (مراد) كتابة مقالته الأسبوعية للجريدة بحماس.. وأخبرته (رضوى) أن (محمود) بصدد التقدم لخطبتها قريباً وهي تود معرفة عيوبه ومميزاته كأخ وصديق.. فهنأها في مودة وصدق وتمنّى لها الخير والتوفيق..

أخرج ملفّات روايته غير المكتملة.. وشرع في قراءتها على مهل منذ البداية استعداداً للدخول مرة أخرى في أجواء استكمالها.. تتصارع الأفكار والجُمل والأحداث في رأسه كأنها كانت حبيسة مكان ما في ذاته وها هي ترى ضوء النهار مرة أخرى..

انتظم في حضور جلسات العلاج الجماعي ـ بعد فترة انقطاع ـ وبدأ يتحدث عن نفسه أكثر فأكثر.. يخرج كل المسوخ التي كان يأويها.. حتى أن (د. رأفت) هنأه في نهاية الجلسة وأخبره أنه يحرز تقدماً ملحوظاً وأنه ربما لن يحتاج لهذه الجلسات بعد فترة قصيرة.. أدرك أن صداقة قوية نشأت بين (عبدالحميد) والشاب الصغير (إياد) وقد وجد كلٌ منهما ضالته في الآخر.. كما أهدى المهندس (نوح) مدام (علا) قطاً شيرازياً جديداً أسمته (أليكس الثاني)...

بدأ (وليد) يشكو من ضائقة مالية بعد طفله الثالث فاستأذن (مراد) في أن يقبل هو بوظيفة الكويت ويذهب فيها بدلاً عنه فهم ما زالوا يبحثون عن الشخص المناسب..

قرأ خبراً على أحد المواقع عن انفصال أعضاء فريق غنائي واعد بعد أن تركتهم مطربتهم الرئيسية ـ والتي ربما سافرت لدولة خليجية ـ ووفاة قائد الفريق (جاسر) بجرعة مخدر زائدة..

تأهب للنوم في فراش والدته ـ الذي صار يستخدمه ـ الآن مستمتعاً بالروائح والألوان والذكريات التي تعبّق الغرفة وبعضاً من طمأنينة مبعثها أن روحيّ والديه تحرسانه فيها..

يقلّب بين الصور على هاتفه ليستقر عند صورة مقرّبة لـ (سارة) وابتسامتها تشع ضوءًا وضياءً.. لو أنها معه الآن لافتخرت بما حقّقه من تقدّم ولما قرّرت الرحيل..

ابتسم في مرارة وأصابته غصّة عابرة..

وردته رسالة قصيرة.. في لهفة فتحها ممنيّاً نفسه بعودة الغائب وحدوث المُستبعد وشبه المستحيل.. ففاجأه الواقع أكثر برسالة من (نادر):

((أين أنت يا رجل؟! ألن تأتي لترى (هاشم) ابنك؟!.. (ليندا) ترغب في أن تتبادلا تربيته معاً..))

(هاشم)؟؟؟!!!

تربيته معا؟؟؟!!

يتوقف عقله عن التفكير فينظر للأعلى حيث يخيّل له أن وجه (إيناس) يحتل سقف الغرفة.. وثغرها منفرج في ابتسامة واسعة.. كأنها الكون نفسه..

لو لم يكن ابنه حقاً لما سمّته (هاشم)..

لو أنها لا زالت تحمل مرارة أو كرهاً ورغبة في الانتقام منه لما رغبت له في أن يشاركها تربية ابنهما...

(هاشم).....

أين أنتِ يا (إيناس).. حفيدك (هاشم) يحتاجك كي تعلميه الحياة.. كي يدرك أي اسم عظيم يحمل.. كي يصير امتداداً لرجل كان عظيماً.. يشاركه نفس الاسم.. هو جدّه..

إحساس لذيذ للغاية يتسرب إليه..

دون أن تتسارع دقّات قلبه أو يحس ضيقاً في التنفس..

أتكون هذه هي السعادة التي كان قد نسيها منذ أمد بعيد لأنه صار يخاف منها..

كأنه أصيب بحساسية من نوع ما تجاه السعادة..

وها هي الآن تمسّ روحه دون أن يُصاب بشيء..

السعادة لن تقتله كما كان يعتقد..

السعادة شيء جميل جداً..

هكذا لم يطق (مراد) صبراً وما إن جاء الصباح حتى بدأ يعد العدّة للسفر.. متناسياً أنه سيقابل شبح الماضي العتيد.. (ليندا)..

هو الآن لا يفكر سوى في مخلوق واحد..

هو الكون كلّه والسعادة الصافية الخالصة..

اسمه (هاشم..... مراد..... هاشم.....)

* * *

(٢٨)

((بعض القرارات الصغيرة قد تغيّر حياتنا إلى الأبد...))

يمكن للمرء أن يقوم بأي شيئ وهو يفكر في شيئ آخر.. ما لا يستطيعه هو أن يفعل شيئين معاً أو يفكر في شيئين في نفس الوقت..

لذا فقد استقل (مراد) سيارة أجرة للمطار بينما هو يفكر في بدايته الجديدة التي قرّرها لنفسه.. لا ينسى كلمات (د. رأفت) المشجعة له من قبيل أنه يؤمن به وأنه الآن يستطيع أن يرى الفجوة الرهيبة التي خرق بها شرنقة خوفه وهرب منها..

وضع (مراد) حقيبته الخفيفة على السير المتحرك وهو يفكر في روايته التي أوشك على الانتهاء منها بعد أن دارت العجلة وعادت المياه إلى الساقية.. ولم يبق سوى القليل من المواقف والأحداث..

وعندما سلّم جواز سفره للموظف المسؤول كان يفكر في (ليندا) بلا انفعال.. بل بادل الموظف المبتسم ابتسامته وتعامل معه بأريحية بالغة وهو يراجع مع نفسه كيف سيتعامل معها بمنتهى الرُقي والتحضّر كأصدقاء

قدامى.. فهو يعترف بلا شك أنها ربما أهدته أغلى هدية في حياته.. وهكذا صدقت مقولته بأن الأمر كله بدأ بـ (ليندا) وها هو ينتهي بها.. ولكن بميلاد.. وليس بموت كما كان يتخيّل..

وأخيراً جداً وهو يسلّم بطاقة صعود الطائرة للمضيفة البشوشة لترشده إلى كرسيه (B32).. ثاني كرسي بعد النافذة.. كان يفكر الآن في أمه ورسائلها التي لا تنقطع من العالم الآخر.. لقد وعدته أنها ستقوده للشفاء.. وها هي قد برّت بوعدها حتى بعد المغادرة.. ينظر نظرة خاوية من النافذة قبل أن يصل جاره الذي سيحول دون ذلك.. فتمر رعدة عابرة بجسده متذكّراً الوعد الآخر الذي لم تلتزم صاحبته به..

نفض الفكرة عن رأسه.. وابتسم في مرارة..

يعترف أن شيئاً ما ينقصه..

ربما هو شيئ تافه ولا يستحق..

ربما أنه مع الوقت سيعتاد مثل هذا النقص..

ربما أنه لا يحتاج هذا الشيء في حياته أصلاً..

بل ربما أن حياته هكذا أفضل..

مرة أخرى يستحضر صورتها على هاتفه.. وعندما بدأ يلومها.. خيّل له أنه يسمع صوتها..

يعترف أن سماعه لصوتها هزّه قليلاً..

ولكنه الآن اكتسب مناعة لا بأس بها..

فاستأنف لومها.. الآن في قسوة أكثر..

لولا أن جاءه صوتها ثانية.. وللمرة الأولى يتبيّن كُنه الجُملة التي يسمعها:

ـ هل هذا المقعد شاغر أم ماذا؟!

انتفض كمن لدغته أفعى.. فقد كان الصوت حقيقياً وقريباً للغاية كما لو أنـ.....

(سارة).....

(ساااارة).....

(سااااااااااااااارة).....

ابتسمت المضيفة غير متخيّلة أن يعرف راكبي (B32) و(A32) بعضهما البعض.. فاستأذنت في رقة وقالت جملة لم يسمعها أي منهما بالطبع..

لكن عندما مسّت ساقيّ (سارة) ساقيه وهي تتأهب للجلوس في مقعدها الملاصق للنافذة يقسم أن كهرباءً مسّته.. فأغمض عينيه في لذّة عابرة.. وكادت دمعة تفر منهما لولا مقاومته الشديدة..

كانت (سارة) رائعة الجمال.. فاتنة بحق.. بفستان أسود ناعم يجسّد قدّها الساحر.. تضع عطراً مثيراً فوّاحاً أصابه بالدوار.. وتضع الشال الأسود الشفاف ذاته الذي يعشقه على كتفيها..

كائن أسطوري مكتمل الأركان....

وما إن حطّت بجسدها على الكرسي وانزاح الهواء ـ الذي كان يملأ الحيّز الذي تشغله الآن ـ محمّلاً برائحتها حتى أحس كما لو أنها نسمة صيف منعشة فملأ صدره من هذا الهواء حتى آخر ما يستطيع رافضاً أن يزفره إلا في بطء

شديد محتفظاً به داخله أطول فترة ممكنة.. قبل أن يعاود تنفس بقاياه من جديد..

كان هذا يقتل آخر ذرّة لوم داخله..

(سارة) أيضاً لم تترك الفرصة السانحة أمامها لنيل الغفران الكامل.. فأخذت يد (مراد) الباردة كالثلج في كفّها الرطبة الدافئة.. قلبتها مقبّلة راحة كفّه في نفس الموضع الذي قبّله ـ هو ـ من قبل.. فانتفض جسده..

عاودت التقبيل ببطء أكثر.. فانتفض ثانية.. فاستمرت في التقبيل بنفس الكيفية وفي نفس الموضع حتى أوشك (مراد) أن يفقد وعيه..

هنالك همست بصوت يقطر عذوبة:

ـ أوحشتني يا حبيبي.. أرجوك سامحني.. أوحشتني كثيراً.. كم تمزّق قلبي وأنا أراقبك عن بُعد..

أفاق (مراد) فجأة.. ووجّه نحوها عينين حائرتين ووجهاً متسائلاً.. فاستأنفت:

ـ لقد وعدتك يا (مراد).. وأنا أفي بوعودي دائماً.. لقد كانت تلك نصيحة الطبيب.. لقد قال لي إنك لن تتمكّن من مقاومة مخاوفك إلا إذا ابتعدت واعتمدت على نفسك.. ولكنني كنت بالجوار دوماً.. أقسم لك.. جاهزة في أي لحظة كي أتدخل إذا ما احتجتني فعلاً..

أطرقت أرضاً وقد بدأ صوتها يتهدّج باكية في حرارة وتنشج.. فأحاطها (مراد) بذراعه باثًّا بعضاً من الدفء والطمأنينة إليها..

ـ في البداية لم أصدّق ما يقول.. ولكنني تركت كل شيء من أجلك.. كنت حاضرة لكل جلسات علاجك في غرفة مجاورة.. أتحدث مع (رضوى) يومياً.. هنأت (وليد) على مولوده الجديد قبل أن يسافر.. وشجعت (محمود) على خطبته.. كما بكيت (جاسر) كثيراً فقد كان

بمثابة الأخ لي.. واحتجتك في شدّة كي تضمّني..

تماسكت (سارة) قليلاً بفعل ذراع (مراد) المشجعة والتي أحاطتها كما لو كان الكون كلّه يحضنها ويحرسها من أي شر يحدق بها..

ـ كنت مستعدة لأن أدفع عمري كلّه ثمناً لاستعادتك.. كان قراراً بالانتحار.. ولكنه منحني الحياة..

وضع (مراد) سبابته على ثغر (سارة) مانعاً إياها من الاسترسال أكثر.. ناطقاً كلمة واحدة.. قديمة جداً..

ـ أحبّك..

ضغطت (سارة) نفسها أكثر داخل حضن (مراد).. والآن ابتسامة سعادة واضحة تملأ صفحة وجهها.. ليست واحدة من ابتساماتها الغامضة متعددة التفسيرات..

هبطت الطائرة بسلام.....

متأبطاً ذراع حبيبته الفاتنة (سارة)..

اقترب (مراد) من (ليندا) و(هنري) و(نادر)..

وذلك الكائن الضئيل الملفوف بالأزرق..

ضغط (مراد) في قوة على يد (سارة).. فها هي المعجزة الكونية أمامهما على بُعد خطوات قليلة..

في بطء شديد.. كصورة ثنائية الأبعاد..

يلتفت الكيان الأزرق الضئيل جهة (مراد).. يتأمله للحظات ران فيها

الصمت المهيب.. ثم ابتسم له في براءة فتهلّلت أسارير (مراد).. لقد ابتسم له الصغير..

لقد ابتسم له..

وفي تلقائية شديدة وفي فطرة زرعها داخله إله عظيم.. مال الكيان الأزرق ـ (هاشم) ـ بجذعه الصغير ورامياً نفسه في الهواء في مشهد أسطوري جهة ذراعي والده الممدودتان....

عبر الأكوان

والعوالم

والأزمان

والأوطان..

لتتلقّفه... في لهفة .....

شكر خاص

في نهاية هذه الرواية التي أرجو أن تكون قد استمتعت بها عزيزي القارئ.. لا يسعني سوى أن أتوجه بالشكر لبعض ممن كان لهم أبلغ الأثر وربما المساعدة أثناء كتابتها.. أخي وصديقي العزيز محمد الرزاز مؤسس جماعة (بي. تي. بي) الثقافية.. فرقة (كايروكي) وخصوصاً المبدع الرائع أمير عيد.. الفنانة المتجددة ماجدة الرومي.. المهندس ياسر ياسين من نادي القصة بنادي الصيد والذي قام بالمراجعة اللغوية للرواية وهو يمر بظروف عائلية غاية في الصعوبة.. كل الأصدقاء الذين كونت بهم لجنة قراءة أولية قبل صدور الرواية وأمطروني بوابل من الإطراء والاستحسان على رأسهم أخي وصديقي د. محمد كمال ريحان والمبدعة الرائعة شيرين هنائي و.... و.... و.... تطول القائمة بالطبع..

ولذا وجب الشكر والتنويه..

المؤلف

سيرة ذاتية أدبية

د. محمد نجيب عبدالله

- طبيب بشري ـ أستاذ الأمراض الباطنة بكلية الطب جامعة القاهرة (م).
- عضو اتحاد كتاب مصر ـ عضو نادي القصة ـ عضو نادي القصة بنادي الصيد ـ عضو في النشاط الأدبي بنادي ٦ أكتوبر.
- ترجمت قصص مجموعته القصصية ما قبل وفاة ملك للإيطالية والفرنسية وقدمت أوراق علمية نقدية عن أعماله في العديد من المؤتمرات الأدبية الإقليمية والعربية كما حصل على بعض الجوائز في مجال القصة القصيرة ونوقشت أعماله بواسطة كبار النقاد في كرمة ابن هانئ ـ نادي الصيد ـ نادي ٦ أكتوبر ـ اتحاد الكتاب ـ نادي القصة ـ مكتبة مصر.
- **له ٣ مجموعات قصصية:**
  - ما قبل وفاة ملك (ط١: ٢٠٠٥ ـ ط٢: ٢٠١٢)
  - عندما تموت القطط (ط١: ٢٠٠٧ ـ ط٢: ٢٠١١)
  - العزف على أوتار بشرية (٢٠٠٨ ـ جاري إعادة طبعها حالياً)
- **له روايتان:**
  - أسفكسيا.. «أن تذوب عشقاً» (ط١: ٢٠١١ ـ ط٢: ٢٠١٢)
  - المبتعدون لكي يقتربوا (٢٠١٢)

- له رواية تحت الطبع حالياً: أشياء في الحب تقتلنا
- له عدة مجموعات قصصية تحت الطبع: نوبة حنين ـ وقائع بعض ما جرى ـ شجرة مصيلحي ـ كريستال.
- له صالون أدبي باسمه يقام شهريا بعيادته بالجيزة الرابط:

http://www.facebook.com/mnwifi/

كما أسس صالوناً أدبياً يقام بصفة شهرية بكلية طب القصر العيني.

- للتواصل مع المؤلف:

بريد إليكتروني:

mnwifi@gmail.com.
mnwifi@yahoo.com

على الفيسبوك: Mohamed Naguib الرابط:

http://www.facebook.com/Dr.M.Naguib